رواية

دابادا



حسن مطلك

الدار العربية للموسوعات

حسن مُطلك

دابـادا

رواية

... بحلول الخريف حيث تُجاهد الأشجار للتخلص من أوراقها الميتة، قامت هاجر ثم اتجهت إلى المطبخ المنفرد لكي تُوقد ما تبقى من أحطابها وتُعد أصباغاً من عروق الشوك لقِربة اللبن. قامت هاجر. يقول شاهين وهي أمه.

وفي كل خريف تتجدد ذكرى ضياع الأب في البراري بسبب أرنب مبَقَّع. بعد ذلك تجيء الصباحات وراء الأقفال لتُذكر الابن بوقفة ما، حفيف رداء، عشيّة عزيزة، خسارة، بكل شيء تقريباً باستثناء عواد واختباراته في فن الرسم على اعتبار أن كل حقيقي جدير بالنسيان حتماً.. وأخيراً أيضاً، انتهت القَناعات مع زوال الفصول وأصبح رضاه نادراً فبدأ بنقر الغلاف مثل فرخ في بيضة.

ومرة بعد أخرى يعيد إلى وجهه المُضاء بالحزن، النشيد المتقَن الحفظ، نشيد حياته الخالية من شرط العاطفة لأنه لم يتجاوز الطفولة بعد سبعة وعشرين عاماً، ميلاده الناقص في الوزن. يتعلم سريعاً كيف ينسى الكلام حين امتلأت أواني الطبخ بأجنحة الفراشات ونبتت الأعشاب ذات الاخضرار الفاقع في شقوق أرضيات الغُرف وهو يسمع جملة واحدة مذ كانت الأشجار أكبر من حجمها الحالي: انزل يا بني على مهل.. دَرَجَة درَجَة. تراقِب تنفسه المرتفع وهو ماض في الاستيلاء على نفسه عابراً غرفته بين شقوق الباب من الرفّ إلى الرفّ المقابل فيتملكها القلق على صحته وهزاله اليومي ويهزها الخوف: إنه يذبل.. هذا الولد. بينما تلتمع عيناه مجتازة حضور المساءات، وتنفجر فجأة حين ترى بأنها عاجزة عن إيقاف حركات البندول لأنه لا يعرفها تقريباً، ولأنهما لم يتحدثا عن هموم بعضهما اللهم إلا نداء الفطور: ألا تفطِر؟ صرخة نهاية الظلمة قبل الصعود أو بعده عندما يكتشف أنها تنظر إليه وقد عقَدَت ذراعيها على صدرها خلال الهواء المهتز بينهما. ولابد أنها تنتظر خلف الباب أحياناً ثم تذهب لتُهمل جسدها بأية صورة وتحاصر رأسها بذراعيها لكي لا تسمع وقع خطواته المتوافق ودقات الساعة، خطوات منتظمة في الثقل والتوقيت لا تتوقف حتى ارتفاع الشمس، وهو لا يتحدث على الإطلاق لأنه لا يعرف كيف يقول لها: صباح الخير، مرحباً، كيف الحال.. ولا متى يقول ذلك؟.

كانت تتحرك بيسر كأنها غير مرئية، انحناءً ونهوضاً مستمرين، ترفع القِدر عن مكانه ثم تعيده بعد قليل، ولكنها حركة متشابهة كحركة الأمس أو الغد مع أنها تقول وتكرر: لقد خَطَبني الموت. وعيناها تتحركان أيضاً في بركة رمادية من الدمع الدائم. آثار ابتسامة محنَّطة، ابتسامة قديمة مُلتَقَطة من لحظة فرح قديم. ويعلو صوتها كلما نبتت لها شَعرَة بيضاء جديدة ، إذ يأتيه الصراخ صاعداً على شكل قوس من الشُباك الأسفل إلى الشُباك الأعلى فيفتح عينيه ويجد كل شيء كما تركه قبل النوم: غبار الرفوف، غبار السرير، غبار شعيرات الأنف. وهم يتحدثون عن مستجدات حلاّب كأنما يتحدثون عن كل ما يعنيه، مع ذلك، لا ضَير. يقول. لا ضَير في البدء لو يتركون فقط مرفقيه على قاعدة الشُباك، فقط لو يتركون فقط مرفقيه على قاعدة الشُباك، فقط لو يتركون.... وبدون: انزل يا بني على مهل، دَرَجَة درَجَة، تمسَّك يا ولدي. طوال نهار الغبار بعد التعب على المائدة لأنهم يسرقونه من متعة اكتشاف إحديداب سطوح البيوت المائلة مع انحدار التل، ينصت دون تفكير إلى خرير ماء الصابون عند صخور البئر المُحَزَّزَة بالحبل مقطوعاً عن التواصل بنهيق أو بجُمل عابرة: " أنتَ واحد مِنا. زوجتي مطلَّقة إن لم تشرب الشاي. تمسَّك بها. أربط البقرة.. إلخ ".

كان هجوم الصباحات على النافذة في لحظات قصيرة مجحفة تمنحه البدائل عن كل أمنية إذ أنه اعتاد النهوض قبل الشمس ليرى الطيور وهي تمزق بأصواتها سماء الفجر الفضيّة رابطة الغيوم بخط أسود بَليل ومتقطع، على اعتبار أن فتح النافذة، بل مجرد فتحها كان يُقرّب إليه سماء زقورات الآثار: هاهي، قريبة. ويدخل غرفته فجر الحقول. يرتد: منشفته. ساعة الحائط. رفوف القواقع. ملابس الطفولة.. ويداه في الظل مفتوحتان للإمساك بشيء ما. عندها يبدأ الشك بجدية الوقائع السابقة، واقفاً حتى ساعات الظهر، ضائعاً يهتدي بأصداء مبعثرة، بنعوت عميقة ثم احتمالات غضب تحولت تدريجياً إلى هواية باردة بنسيان وجع الساقين بعد الوقوف المستمر و... نادراً ما يصل إلى الإغماء. وانتهت القناعات مع زوال الفصول فأصبح رضاه نادراً، عند ذاك بدأ ينقر الغلاف مثل فرخ في بيضة.

فمنذ أبعد اللحظات، تَدحرَج: " أنا الغزالة الصغرى ". على حفرة غائط وتبقَّعَت ثيابه فساقوه بالتصفيق حتى مدخَل " الحِصار "، هكذا يسمون البيت ربما وفق طريقة خاصة في البناء، فكان يلمس الحيطان: باب يؤدي إلى باب ثم نوافذ صغير قوسيَّة والغُرف مظلمة ما عدا غرفته لأنها مرتفعة، مكان دائم رغم تبدل الفصول، مكان خاص للنوم والطعام والعُري يحتل بقعة فيحميها من الأمطار وحرائق الشمس وبرد آخر الليل. والبيت هنا، ذابل في مركز العالم وبعيد عن متناول اللصوص. معزول لأنه حُرّ في أن يسقط أو يستمر، ولكنه مُقيَّد بمتانة الزوايا حتى خمسين سنة أخرى تقريباً.

كان يعرف أنه يستحق حين ساقوه إلى مَدخل " الحِصار " وهو الغزالة الصغرى فوق حفرة الغائط بدليل أن الخجل يأتيه فيكسِر نظره إلى الأرض كلما تفحص الأفق، كيف الأشجار، وكيف أنها تُبعثِر استقامة الخط فيحسب أن سماء الجيران خاصة بالجيران تُقرّب الله ببراءة اليقين بإمكانية الاستجابة لأماني الفِراش. والجيران هم العائلة نفسها بالوراثة أو بتبادل أواني حَساء الخُبّاز كفرصة متاحة لاستفزاز الذاهب خلف أرنب مُبقَّع، إذا ما استثنى الحلاوة في عُلب خشبية مدوَّرة، وللناقص قطعة خبز وعليه كف الأب كطابوقة إذا رفض الخُبّاز فقد كفر بالنِعمة. يندس تحت وبر الغطاء برفق لكي لا ينكأ حجامة ساقيّ الجَدة السمينة آكلة البيض الفاسد. الجَدة المُقعَدة، علامة احتجاج الأسلاف ضد الجيل، وهي تُحدّر وتحِن: " كان يا ما كان عن الأميرة بدر الزمان..". ثم تنام عند عتبة باب السُلطان ويمتد منقارها، وهو يعني أنف اللقلق على الحائط، فيحوّل الفانوس لأجل الحصول على مزيد من الاستطالة حتى صدْع الزاوية أو يرسم بسبابته على تراب الِقشّة ـ وإن شيئاً ما ينتصب تحته دافئاً كالبول ـ عشرات الدوائر بلمسات حذِرة " دوائر النُعمان " الفائقة في الذوق. ذلك الانفراج غير المقصود، العطاس أمام الوسادة: مخاط أخضر، بمثابة جذع للثمار الدائرية. كان يحن إليه لأنه هوس النطق بالأفعال عبر لذة الماء الفاتر. أحضان وعجول الظلمة تُقرِّب ما مضى، خرساء سوية في التحوّل لأنها خرساء ممتدة حتى قعر طفولة الجَدة: مجرد جذع مُحاصَر بشريطيّ قماش، في الماء أيضاً حيث تستحم العجول..

حين اتجهت هاجر إلى المطبخ المنفرد عن البيت لتوقد أحطابها المتبقية، صعَد إلى شُباكه وألصَق مرفقيه بالقاعدة فشاهدهم في ضوء النافذة الصريح، أربعة رجال وامرأتين، يضحكون بعيون دامعة بين رفعَة الأثاث. رؤوس وأكتاف تبيّن له ترف الحياة التي تعلو مقابل شُباكه، وأن الذي يفصلهم عنه، فقط، فراغ ما بين البيوت بحيث يتشجع رجل مسلول على القفز نحو سطوح الحارَة الأخرى. ليس ثمة علامة في حائط الجُص باستثناء فَضَلات الحمام على الحافة السفلى للشُباك المقابل، الحافة التي تَبَح صورتهم من المنتصف، ثم أنبوب تصريف مياه المطر يمتد حتى الأساس.

مربع الضوء المُحدَّد بمربع ظلام الهاوية ذي الأفقين المليئين بالمتعة، حافة الحوض أو المائدة أو أي شيء يجلب الثقة بلا اكتفاء ولا خسارة لأنه ينبثق كهديّة مفاجئة: ضوء. ضوء! يعكس وجه شاهين على الزجاج فيتلمسه عندما يتذكر ذواء الخريف، عميقاً مظللاً على الجُص.

خرج النمل المُجنَّح صوب الحبوب الراسية في حافات السيول منذ طوفان أكياس قمح المخازن بعد المطر الأخير ولم يستطع أن يراهم. كان يعرف أنهم هناك يجربون السباحة في بركة الضوء غير أنهم مفصولون عنه بنسيج مُخَطَّط وهم يضحكون يومياً بين سجاداتهم المُزيَّنة بصُوَر طواويس وأعراف هداهد وقرون وعول تمتص صدى قهقهاتهم وكلامهم السطحي الدافئ، يهمسون في لحظات الهدوء بعد العاصفة، حركة واحدة كصلاة إلى الأسفل بحيث يمتلئ الهواء بأماكنهم. ينحنون جميعاً ناطحين حافة الظلام فتنبثق جُملة واحدة كُتِبَت بفحمة أو بقلم مستعار من الليل: " ذكرى المُعَذَّب صابر يوم الأربعاء بعد المطر "، لذلك، وليس لأجل ذلك، يَسقط في فرق التناقض بين العذاب والضحك، المُعَذَّب والضاحك، بينما يجمعون استحقاقهم من قتل بعضهم بعضاً أثر التخديش والاهتزاز كصورة عِتاب الأحباب. لن يحتما الخيانة أكثر لأنه لا يريد بلوغ النهاية، فيرتد باتجاه رفوف الغبار والقواقع، لكن المربع المضيء يقفز حيثما يُحوّل عينيه فيهرب إلى تخيّل صورة البيت الذي سيبنيه في المستقبل قائماً على دعامات رفيعة في أوراق المشاريع ولكنها صورة قابلة للتحوير ما عدا الشُرفة المُطِلّة على البراري حيث يشرب القهوة بالحليب ويتحدث عن إمكانية القيام بجولة خلف التلال قبل أن يمر بعواد نظراً لحاجته إلى إشارة خاصة يحبها فيه، ويمر ببيوت عديدة تقتسم قباب الأرض لذا سيحتاج إلى تحيات الجيران أولاً. بيوت تحد بيوت، وبيوت تهب سطوحها كأفنية لبيوت أعلى. أما البيوت الأخيرة فإنها مَصَدّات لرياح شباط وملاذات للأبقار خلف أبواب الصفيح المُسندة بألواح مسمارية مُستَخرَجة من منحدر التل الأسود حيث ينمو الفِطر في أكواب الآشوريين بعدما تمر عليها الدواب وقد عادت من التلال الجرداء بينما تحتفل الضفادع استعداداً لهجر السُبات ويتهيأ الزيزان بعد ثلاثة شهور للغناء في هشيم الحصاد، ثم عيدان الشقائق الميتة ـ شقائق الكلاب التي تترك نُدباً بعدما يلمسها الرعاة.

نظرَت هاجر إلى الباب يَفتح نفسه بصرير بطيء فأوقفته وهي بكامل أناقة الحِداد، أوقفته. دخلت رائحة الأغنام إلى المنزل، وقفت. كانت مرتجفة لأنها مرتبكة لأمر عزَمَت عليه فنسيته حالاً، أما النازل فقد لمح ظل امرأة في الباب فناداه: هاجر..

كان الظل ساكناً يتابع تسلق الدرب على المنحدر بينما كانت الأشجار السوداء أسفل الهاوية تحُك نفسها لكي تنتزع بعض أوراقها الميتة. ومنذ أن وضعَت الباب وراء ظهرها تبيّنَت له رغبتها في الجلوس على هيئة السقوط عند النار بجلسة قديمة ورَثَتها عن شبيهاتها وبرجاء لا يوازي نشاط الشُهب وقرقعة الأحطاب. رأسها متجه نحو أفق القمر، وذراعاها معقودتان، وقد كشف رقص اللهب عمق الغضون حيث يُعبّر كل خط عن وقفة وداع أخيرة لأعزاء، وقفة راسخة، أبدية لصورتهم وهم يختفون بين الأصابع لحظة رفع الكف. اضمحلت طيات الثوب بشيء من الإهمال. الثوب رمادي مصموغ في الخلف حتى ظل الوتد على أعشاش العصافير، متميز عن حائط الجص مثل مغارة، وتقول: أراقب كل يوم طول ساقيك، متى ستنطح حدّ الباب، تتخلى عن عادات وتكتسب أخرى؟. ومضت على خط اطمئنان بسيط لأنه استجاب فزعاً لكلماتها وتذكر وهو ينظر إلى اتساع حضنها كيف مدت دجاجة جناحيها فوق كتاكيتها حين أبصرت في الأرض ظل الباشق. لكن الغريب الذي مرّ وسمع الهمس، قال: إن شاهيناً لا يشبه أباه، فذاك رجل مليء بالغناء. غالباً ما ينسى أي امرئ كيف كانت صورة رجل معين في طفولته ولكنه لن يقدر على نسيان محمود حتى أبعد يوم في الخَرَف لأنه وُلِد من مزنة بعد جفاف سنين فأخذته جدته إلى النهر ملفوفاً بمسحوق الشوك، فكان يبتسم لمشهد الامتزاج العجيب بين الماء والضوء عندما تجيء الأمواج، تذهب الأمواج، وتجيء ثم تذهب لاطمة زعانف الأسماك الميتة. وكان النهار الأول في حياته يحمل أنباء سارة فوق ظهور حمير القرى البعيدة... وطلّعت العجائز من الوديان لمشاهدة الطفل المعجزة بعينيه الداكنتين وشَعره الذهبي المُمَشّط وهو يمص إبهامه ويبتسم لدائرة الوجوه المُجَعَّدة ويجزّ خصل الشيب. لم يكن يحب الغناء فحسب إنما يخترع ألعاباً عجيبة. رجاءً. يعتذر الغريب. كان يركض خلف الأرانب منذ أن تعلم الركض بعد خطواته الأولى...

رآها في حضور دائم بعد خمود النار حركة إثر حركة ولا يعرف كيف يقول: أمي. وهي تجهل عنه الكثير لأنه لا يعرف كيف يقول: أمي. ولا ترى إخلاصه المُشِع كإخلاص الأبناء عندما يسألون عن طبخة اليوم، بل على العكس، ترى الجحود المُشِع في مرور السنوات التي يقضيها محبوساً وهي عنده سواء في النشاط والمرض.. ويخمد الجمر فتغيب عنه كذكرى وفاة، بلا أحاديث لأنهما يعرفان حياة بعضهما البعض كما ينسيان بعضهما لحظة الصفاء الباردة، نتاج الصداقة، الإبريّة، ما أن تحضر حتى تغيب مطموسة في الليل باتجاه أفق القمر بعدما لبست صفة القسوة كما تفعل أحياناً عبر صيحة برمة. سمع اصطفاق قماش فخمّن أنها واقفة لكي تنفُض الرماد لكنه لم يبصرها حتى سدت ضوء الباب ثم دخلت.

سمع صوتها الحزين، أنيناً كصوتين مختلفين عِبر مانع الذباب.

أولاً: وضَعت حذاء المطاط تحت إبطها لكنها استدركت فلبسته ثم انتبهت، ثانياً، إلى ثقوب المسامير في الحائط. مربعات مُغبرة، أماكن مربعات لصور مخلوعة. صورة محمود في الوسط إلى جانب وجوه ممثلين حازوا على جائزة الفتنة السينمائية. عادت كما في ذلك اليوم باكية محيرة وقد تمنى أن تكون هادئة وهو يتبعها كلما استدارت بسبب الحائط، ثم اختضّت فجأة بعدما أخفت ذراعيها خلفها. دقيقة صمت. بل دقيقة وقوف لأن الصمت مستمر و: اتبعني.. لكنه انزلق صاعداً السلم حيث شبُاك الضحك بعد الهوّة. صفَعَة. صفعَة أخرى و: البَس واتبعني..

مرت خطواتهما بمحاذاة أحطاب التين فتلمسها فاهتزّت بحركة تدل على النوم. تُثار الروائح لحظة لمس التين. الروائح التين ـ يا للألم. عجائز. أشجار تعاصر التحولات، تنفُض وتكتسي. عجائز بين الأغصان، رائحة الصُرُر والريش المنقوع والحساء وأبخرة القيعان تصعد أحياناً بمستوى التل حيث مكان وقفة الأنوف في الأفنية المحروقة تكشف عن علاقة نحسة، تهتز.. نادراً ما تهتز بفعل الهواء فيجبرهما الانحدار على الركض حتى منتصف طريق الحصى المرصوف بشجيرات الكُبَّر التي تهتز بفضل الحفيف. كان النهيق وحده، ثم النهيق والخِوار، النباح والخِوار، أصوات أخرى لكنه اكتفى بالإنصات إلى حفيف عباءة هاجر كشيء شبيه بإحساس النهاية. العناصر الفِطرية التي تعلو على الانفعال الأول لرؤية زغب الشارب.

يمد الطريق نفسه إلى هدف سريّ في الهاوية، لأن الهاوية في كل مكان، أحياناً تكون خلف الباذنجان حيث الموضوع الخاص بمجاعة السود ثم يرتفع الطريق مُجبَراً على ظهر تل فلا يحب الالتفات لكنه يتذكر منظر أضواء القرية عند بعد، لاسيما بيت حلاّب على أعلى تل، بنوافذه التي مسح ضوءها شجر دائم الخضرة في الحوش. لحظة اهتزاز التين، يسمع مضخّة الماء تغذي تفرعات السواقي فينداح ماؤها في زغب الحقول وحُطام مزارع القطن.

بحركة تدل على النوم ـ لا يزال هناك، نوافذ قوسيّة والغرف مظلمة ما عدا غرفته لأنها مرتفعة كمكان دائم رغم تَبدّل الفصول. البيت. ذابل في مركز العالم وبعيد عن متناول اللصوص، معزول لأنه حُرّ في أن يسقط أو يستمر ولكنه مُقيّد بمتانة الزوايا، لحظة اهتزاز التين، يسمع الكلاب المحيطة بمستطيل جلسة الضيوف تنتظر عَظماً مقذوفاً من فوق كتف، أما القطط فتموء في زنابيل الغِلال مُغازِلة أذناب بعضها، قرقعة قِدور بفعل نساء غاضبات لكثر ما طَهيّنَ من حواصِل دجاج لم يسمح الوقت بتنظيفها...

سمع. أجل، عادت كما في ذلك اليوم. هاجر. باكية محيّرة، غير أنه موحل بمكان ورأي، ليس لأنه يكرهها.. بل لأنه لا يعرف كيف يقول: أمي. ويكذب ثم يَظهر لها قاسياً ويعرف أنها تنتظره على بعد خطوتين فيحس بالارتفاع والهدوء الشبيه باللهب وحَذَر الأراضي المفتوحة. أبداً، لم يحبها بحسم كما تَوَقَّعت، وهو.. شاهين، يفهم وينصرف بينما تخاطبه برجاء: انهض. فلا ينوي الامتناع لكنه لا يُقاوم فحدثّته عن مذكرات ثور خَدَم القرية، وهي القادرة: انهض. ثم تحدثت عن وزّة ـ المرأة ذات الخوارق. كان ثوراً قهوائياً. ما معنى القهوائي؟.

يسمع الطُرفة الأولى: الثور القهوائي شبيه بالقهوة بحيث يحتاج إلى كوخ خاص به لأنه كبير. هل كنت مرتاحاً حقاً؟. وبسرعة: نعم كنت مرتاحاً حقاً. الثور القهوائي شبيه بالقهوة، بالأحرى

شبيه بلون القهوة التي نضعها في الفنجان ونشربها ولا يمكن أن نضع الثور في الفنجان ونشربه لأنه كبير جداً. بحيث يحتاج إلى كوخ خاص به. واغرورقت عيناها بدمع لم ينزل ولم يجف: كنت أتعذب طوال هذه المُدّة.. وأنتَ؟ فيقول: أنا؟. كانت قرناه: أنت لم تر قرنيه وهو يُقَطّع الحبال في محاولة غاضبة لمناطحة حيطان الكوخ. أنا أيضاً. ولكنه لم يفكر بمحادثتها الآن. لماذا؟. ووقفت فجأة أمامه: أريدك.. محتاجة إليك. كان صامتاً وليس حزيناً وإنما يريد أن يبكي. لا يدري أحد لماذا كان يكره منظر الرجال.. فعندما مرضَ ذات ليلة وتمدد على التِبن.. وما أن رأى البيطري الذي لبس ثوب امرأة حتى انتفض وهاج قافزاً حيطان الزرائب باحثاً عن بقرة مستعدة للولادة ثم اختفى. اختفى!!. تقول: نعم اختفى. وتقول: أريدكَ محتاجة إليك أريدك.. ولكنها لا تفهمه: ومن يستطيع فهمك؟. فشعر بالبرد حيث لم يكن الكلام مهماً. اختفى الشبيه بالقهوة فاحتار مُعجبوه بذكاء السارقين، وكيف لم يَنطحهم وهو الذي ينطح أي شيء ويدس قرنه، هكذا يحب أن يدس قرنه في أي شيء لأنه لم يكن مُلك شخص معين، مُلك القرية كلها، فقد اشتركت المنازل في شرائه قبل أن يذهب إلى حقول الحلفاء العالية ودغل جُزُر النهر. حكاية يعرفها شاهين. واستطاعت وزّة أن تتنبأ وتكشف عن المستور. حوّل رأسه، تغوص القرية خلف خيط التلال ويبقى منزل حلاّب يدفع الضوء من نوافذه إلى مَديات الطريق القصيّة.

كان النباح يصعد مع الأرجاء. النقيق في البرك.. وحين عوت الذئاب ابتدأت يقظة الحشرات عندما قال شيخ: إن الشر فكرة وإن الحب طبيعة. كانت وزّة في غرفتها تمارس طقوس الانعتاق والتملص.

أحس شاهين ببرد في الرأس عكس المتفق عليه من أن البرد يبدأ بالأقدام لحظة طلوع قمر المستنقع أمام تلك الساحة التي يسمونها منزلاً خاصاً بالغائبة، وثمة غرفة واحدة مرمية في الطرف، وقد فوجئ حين دفع الباب كيف لم يلتق بهذه الوجوه من قبل: كيف لم ألتق بهذه الوجوه؟ الحياة مُكرَّسَة في مقهى صغير. يمكن ذلك. وجوه حادة التعابير، لواحدٍ وجه الثعلب في قراءة الأطفال. الثعلب الشاطر ـ الثعلب الماكر. مستعارون من صور كتاب القراءة. مرضى وأقوياء تفوح منهم رائحة الخشب المنقوع لحظة اهتزاز شجر التين. واحد يجلس في الزاوية ويُدخن دون أن يرفع بصره عن دوائر سوداء رسمتها قواعد صحون الشاي. يُدخن دائماً ولا يُدخن أحياناً. ثمة ذباب ونساء، ذباب الخريف، رجال ونساء. رجال فَكِهون وذباب طَنّان يقتات على البصاق وبلورات السُكَّر الضائعة كذكرى عجوز تغسل وجهها بالعصير لإزالة التجاعيد وفق مقولة ما. شيوخ يحسبون خَرَزَ المسبحات أو يكرزون بذور عباد الشمس تحت لافتة: البول للحمير.

تدخل الوجوه القاسية تباعاً بصحبة غبار الطريق في وجود كثيف من دخان التبغ، تذكر مسمار غرفة هاجر، يتدلى منه حزام الوالِد الجلدي بتعاطف حُر مع عصا التأديب، ومسمار عام في منزل وزّة يدخل رأسه في تفاصيل المعاطف والعباءات محتفظاً بذكرى روائح مختلفة: البقول والنيكوتين. وتمتد أمامه أصابع راجفة إلى أصابع أخرى محروقة لتزيل عنها قشور الشفاء ولا تكف عن الحركة والبحث لعلها تعثر بشيء يغطي البقع.

أسند رأسه إلى الحائط البارد فسمع عبر الملاط زحوف الذكريات وأصوات النجدة والدعوة إلى الشاي في اللبن المختبئ.. دبيباً أو شبيهاً بالاستنساخ، فلجأ إلى تفحص ثور بشري تبرز خصيتاه بوضوح دافعة مثلث السروال، كان يتكلم بصوت مخدوش ويهتز ملاطفاً الأصلع السمين، أو السمين الأصلع نفسه، ثم يأخذ لحظة كإجازة ليقرأ رد الفعل في الوجوه و.. يبتسم.. يبتسمون مباركين المزاح. يقول: استمر. يضرب كفه بقوة ومرونة على الصلعة: يوه ماذا فعلت؟ يقول أحدهم: استمر. ويضحكون. هناك فتحات خاصة بالضحك. للإنسان فتحات كثيرة إحداها للضحك وكلهم طيبون تحت اللافتة لأجل تمشية الوقت يصفع أحدهم الآخر ثم يضحكون معاً، وأحياناً يضحكون سويةً. فرق كبير بسبب اختلاف الفتحات.

وفي نسق أيضاً ظهورهم على الحائط يأملون بمجيء أشياء من المجهول. في نسق. ينقلون أبصارهم بين خشب السقف ثم يلاقونها عند عش سنونو خطّط العمود الرئيسي بفضلاته وغادر بلاد الهند كما تصِف الأغنية.
إن أي شخص هنا ينتظر بفارغ الصبر والحزن انفتاح الباب ومجيء الصفات الأولى للغائبة: الظلمة والشهوة، التنبؤ والغرق، الزحوف والاستهلال والذبح المفتعل، رمز الذبح تقريباً. كلهم يفكرون بالباب ويقتربون من بعضهم بعضاً ويحبون بعضهم، غير أنها لم تَخرج إليهم بعد لأنها تبدل في ضوء الكبريت وجهها. لربما سيأتي الحظ في هيئة شحاذ: صدفة. أو عودة غائب من وراء الأقفال في نفق: السلام عليكم. لكن ثمّ قلق وراء كل جدار يتوقع الجالس بعد الخروج أن يُباغَت بكلب زاوية ليلية: عو.
كان الزمن ضائعاً في فراغ المكان، كافياً لكي يستعرض كل منتظر أسماء الوجوه العميقة المطعَّمَة بيباب الحصاد. هناك آثار كلمات ذاوية على الشفاه السفلى المتدلية.. حتى المسافة بين الناظر والعمود ـ إلى عش السنونو ترسم تاريخ شخص على عجل فهو رائع، قوي، متماثل للشفاء بعد سنة أخرى يكتشف، إذن، مجموعة افتراضات مخبوءة في حلم. أن يُولَد عارياً فيتطبَّع ثم يُتقِن حدّ الدقة كيف يُوضِح ويعتذر كأنما يعبِّر عن أسفه لهذا المجيء. في الحقيقة، إن هي إلا استجابات أولية متتالية كلعبة مضمونة الخسارة وليست أبداً مشكلة بداية ولا نهاية، ولكن فيما بينهما. كيف أستطيع؟ يقول شاهين. أسئلة تعُود لسؤال واحد أصلاً.
أطلقَ عينيه بمحاذاة الحائط إذ ينتهي البيت الطويل بآخِر زاوية فأبصرَهم ينحنون أمام الضوء المجزء لنافذة غرفة الغائبة ويتفحصون بعجب رقة جناح حشرة عندما تتلامس رؤوسهم على شكل زَهرة سوداء تمد فروعها في ظلال سيقانهم المطوية على الحائط. يعد أعمدة السقف: واحد، اثنان، ثلاثة ـ صدَعٌ في العمود الرابع، والآخ (...)، هذا الأخ بالذات يبدو مقلوباً بالنسبة للسقف، رأسه إلى الأسفل حيث يرقص ظِل النار ويزيد الرماد عتمة عينيه. صغار في مرحلة الزَغَب يذهبون إلى الزاوية واحداً بعد آخر وينظرون إلى الحائط عن قرب شديد. يَحكّ الطويل ظهره بوتد حبل باب الخشب. يعودون. يذهب أحدهم إلى الزاوية. الطويل يتكلم، ليس الطويل بالضبط، إنما أطولهم يتكلم وهم يُنصتون. ينحنون أمام الضوء المجزء لنافذة غرفة الغائبة وتتلامس رؤوسهم من جديد على شكل زَهرة سوداء.
استفاق شاهين، وهو يستفيق مبكراً أحياناً ـ نوم الكلاب الحذِر. كانت يداه مهملَتين على صدره فانتبه لهما: نعم. اسمها هاجر. تجيد السؤال العادي: كم الساعة؟ بعد خمس دقائق من: كم الساعة؟ السابق. تسأله فينهض: هواء. يقصد أوكسجين، على جذع مبتور أمام الباب يسمع السكون كمِخرزَ يدخل الأذن فتسمح له بعينيها.
وشيش كمِخرزَ يقطعه هواء بعيد أو نهيق بعيد أو دبيب قوائم قطيع مُتأخِر العَودة.
خرج أطول الصغار وقَعَد على الجذع يحك عود كبريد فينير المكان. يحك عوداً آخر. يحك آخر فتتبع النار من مكان بعيد، زمان بعيد كبُعد اللجوء والارتواء لأن الطفل يغوص بين الحائط والجذع فلا يلحَظ منه سوى عينيه الطائرتين في فراغ بعد الغروب. تنفس بطيء خائف كلما نزَل أكثر بين الجذع والحائط. تنفس بطيء بطيء.. بطـ.. ـيء، يكاد أن ينقطع. بينهما مسافة تكفي لتمييز عمق الظلام ـ حتى وُعورة الهند مع خط مُنعكِس إلى غابات أفريقيا. عمق الظلام في الجمجمة. عيون الزنوج عبر الليل الماطِر، ليل خط الاستواء. الرجل الخائف، الرجل صاحب الطبل. المرأة الخائفة ذات القلائد. الضوء البعيد في عينيه. عينا طفل بوذيّ بموازاة خط إلى عينيّ طفل من مجتمع سموا.....
.... سموا...... سموا......
لا تقتصر النار في عُلب الكبريت بل تُختَزَن أحياناً في عيون صفراء لنمور تمشي بين الأكواخ. يقول إنه بحاجة إلى الحُب. هكذا يقول: إنني بحاجة إلى الحُب. وهو يعني أنه بحاجة إلى عينيّ نمر لكي يرى مذلّته في شكل سُداسي، كامنة ـ وهو يقصد: خامدة. في هجران الحميميّة العائلية كحفيف

عباءة هاجر. أصناف أخرى يمكنها الإنبات في هواء البرك. تلك هي البرك. هواء من هذا النوع تقريباً، حقيقة كل ما يثير رائحة الإنسان... حتى احتكاك العُود الأخير. العيون السداسية الصفراء للفهود السوداء، النمور الجميلة الجائعة. ضوء يخرج من ثقبيّ الجمجمة. كان محتاجاً إلى هذا الإحصاء لأنه محتاج إلى قسوة الضائع في البراري بسبب أرنب مُبَقَّع. وكان يلجأ إلى النوم تقريباً حين قَرَعَ خُفَيّه على سطح الكرة الأرضية. وتبقى هاجر بجوار الباب مستعدة لفتحه في أية لحظة بعد أن تفرُش الجلباب على المخدة وتلبَس قلادة سِن الذئب وتضع القِدر في الحمّام وتغرز عود بخور في شق الحائط. كان يلجأ إلى النوم لكي يسمع صوت شفط الخَد حتى غرفته العالية ثم صوت خشب البندقية مع سؤال حول المستوى الدراسي. يسمعه منهاراً على المخدة بسبب تعب الصيد متحدثاً عن أوكار الأرانب، وهاجر تقول:

" أنتَ تحب الباذنجان، شرائح أم دوا..." فلا يدعها تكمل لأنه يصعّد كلمة " دوائر " على شكل غناء: دوائر النعمان الفائقة في الذوق.

وهي تعرف أنه لا يصيد لأجل شيّ اللحم وإنما لمجرد متعة الصيد. مَلُول وحَساس. صبور في البراري. سريع العَطَب في البيت..

أصوات مختلفة لأشياء مسحوبة أو مرميّة، وكلمات ضائعة بين الأصوات هابطة عن قُدرَة السماع لأنها همسات، باستثناء تلك التي يصرخها فتهز الرفوف وتفلت إلى الطقس عِبر الشبابيك القوسيّة فيسمعها المارون عجباً أو اغتباطاً أو شتيمة لا تعني التجريح... ويظل يتحدث حتى منتصف الليل ويخفت صوته تدريجياً في أذن الموشك على النوم، يخفت ويخفت، ثم ينتبه من جديد:" هنا لندن، نحييكُم ونُقدم لكم أغنية حُبك نار...".

بعد أن ذاب الصبيّ بين الجذع والحائط انقطَع الاهتزاز والحك فهجَمَت الظلمة. تلَمَّس المكان: هُوّة. بمحاذاة الجذع. هُوّة بلا قرار فأين الحائط؟. مجرد إشاعة مقنعة حول إحساس الامتداد. مجرد: أين الصبيّ؟.. عيناه، أين؟ عيناه الطائرتان في ثقب منطبق على الطريق القديم لقوافل التوابل والحرير والورق الصيني. عيناه، ثقب في الضوء... أين؟.

دخل القاعة بعد الذوبان. القاعة. المنزِل. المقهى، أي شيء تقريباً - بيت الغائبة وقد حضرت. مفاجأة، ممتلئة بيضاء موشُومَة الذقن موشُومَة الأصابع، وموشُومَة في كل جزء ظاهر وكل جزء فخي تحت الثياب، لأن سلسلة الخطوط الزرقاء لن تكون مريحة للناظر لو انتهت عند حد الثوب الأسفل، بل تدب كحيوان أزرق بعشرات الأرجل إلى بقعة لقاء حميم في منتصف الجسم. أنهار من الرموز تنبع من سر الحياة في منتصف الأنثى. منتصف الجسم تقريباً. عينان غائبتان كعيني القادم بعد تجربة الموت. وهي قوية لأنها تحمل ثقل الحصى المُثَقَّب بمثابة قلادة تتصافق مع حركة الساقين باتجاه الشيخ القائل أن الشَر فكرة وأن...

الشوك نبتَ في ذقنها بدل الشَعر. وانفلت اللولب. ففي كل مرة يحاول الإمساك بلفظة تختصر الحياة، كلمة يقولها فلا يبقى سر بعد ذلك، ولكنها تقفز إلى مكان آخر كلما حاول جمعها.

لقد كَسرتها الأيام المليئة ببكتريا الزيف البشري وهي هذا النقاء الملوَّث طوال الساعات المصروفة في النظر إلى نبض الأشياء الميتة وتقول: لم أنسَ، ولكنني كنت غير قادرة على المجيء أو على إيفاء ديونكم، مكسورة أيضاً بلذة اعترافها الأخير بعدم القدرة على إيفاء الدَين كله، ولا حتى نصفه. وهي ترى الرجال يصعدون على سلم عمودي نحو الهواء وترى النساء يصفقن لهم، وبذلك اكتسبَت تجربة في قراءة النوايا بما يفوق رصيد قرن من الخيبة. على أي حال، يبدو في بواطن اعترافها بأنها ليست مهزومة تقريباً، وإنما مُتعَبَة تقريباً. ليست خائنة بل مسكونة بمرض الحواس أحياناً، مع ذلك فالأمور لا تبدو كما هي عليه لأنها تُرى بأعيُن متباينة الحِدّة. لا تستطيع لفظ بعض الحروف، بعض حروف العِلة وليس بعض الحروف الصحيحة أبداً أبداً، متحدثة عن قدرتها في إيقاف السيارات على عجلاتها الخلفية ورؤية رداء الجد بإشارة واحدة من عصاها. تُوزع الحلوى على المارين وتُبعثِر زبائن سوق الهرَج في المدينة. ومر زمن طويل - طويل تقريباً، مأخوذة بأحاديث مُبهَمَة، لم يُدرك الحاضرون معنى لوجودهم هناك ممن يحمل منهم

شرف الالتصاق، أو قدرة الالتصاق عبر غفوة تمتد من مراهقة امرأة حتى سن اليأس. زمن كافٍ لإدراك أن ما فعلوه وما كانوا يفعلونه بلا معنى، وأن حضورهم شبيه بغسل الأحجار قبل رميها في النهر.

وبقدر ما كان الأمر بعيداً عن شاهين فإنه مُلزَم بتصعيد حركة التنفس مخافة الضرب واللعن حد الإغماء إذا ما تجرأ بطلب المزيد من الأوكسجين.

في الحقيقة، إن ما يُعَد شخصياً قد يعني الآخرين أحياناً بالفضول أو بغير الفضول، لذلك لم يتمكن أحد من منع رغبة الارتجاف كاستحالة منع رغبة الثرثرة، باستثناء شاهين. هو. شاهين. وليس سواه أبداً أبداً. والحال مع هاجر معادٍ لمفاهيم البيت المعروف وقد انتصبت بموازاة العمود المُخطَّط بفضلات السنونو، وحيدة مأخوذة بنداء، تفك جدائلها عُقدَة عُقدة وتُغيّب الحاضرين... بينما انسحب إلى الجذع مُخفياً وجهه بين كفيه ـ إلى الظلام. دامغاً بمهل الرموز التي تعلو على التجربة. تتجاوزه. تلك الهابطة من الأسلاف الطيبين الصحراويين الزُهاد المعصومين عن الخطأ. فلو كان الحادث مجرد صدفة، لأمكنه أن يتخيل ورأسه بين يديه وهو يسمع حفيف السيارات وليس حفيف الأشجار كما هو الحال لدى الغائبة التي حَضرَت، ضوء الكبريت وليس الضوء الكبريتي. إنها الفوضى أحياناً. يتخيل ورأسه بين يديه كما هو الحال بالنسبة له: تحوّل الحجر إلى كعك، إذا رغب الحجر. إنها الفوضى دائماً. فوضى داخل فوضى متبوعة بفوضى، وأنه لابد من تبرير لهذا الضغط المُسَنَّن على سطح الرأس، هواية العالم الأزلية. تبرير حركة الأشياء.

دفع ذراعه إلى الخارج، كل شيء خارج، الحائط والظلام والجذع وعيدان تنظيف الأسنان، كل شيء خارج. محاولة لرمي الأحداث في مخزن التأجيل. هي رغبة، أن يقبل بما يرى، إنها رغبة نقل القدمين.. كنت تخصه، هو شاهين وليس غيره أبداً لأنها تمر خارجة من بدنه. حتماً سيعرف شيئاً، سيحب شيئاً. يقول: سأعرف شيئاً وأحبه.

يقين مبدأ الملاحظة الذي لا يكذب حين يراقب: أنا شاهين، أراقب نفسي تطول وتغيّر عاداتها.

نسي أنه سيُفاجأ بارتفاع الأرض عندما صعَّدَت الضواري عواءها، وشَعر في نفس الوقت بحاجة لتحريك القدمين بلا انقطاع، مصغياً إلى البُقَع المعتمة في سطح القمر وشَمشَمة الحيوانات في أخاديد ما بين التلال. الحفيف السري، مرة أخرى، حفيف ثياب النساء. نساء بلا شَك، يعبُرنَ أفنية المنازل فوق أحجار مرصوفة، يَعبُرنَ بحذر أحياناً حتى لا يطأن الأرض فتتكسر أصابعهن.

التماعات فوريّة، كل ما يخص رغبته في رفس عُلبَة مُجَعَّدَة. يبحث عن التماعات العُلَب في ضوء القمر. التماعات تقاطع قضبان الشبابيك على سفوح التلال حيث بعض مربعات الضوء المُبَقَّعَة بظلال أواني الشاي. المساحة أقل بناعم الهواء. ظِل فوق ظِل. جُزُر ومزهريات ومسامير وأنوف في الظِل. ربما نسي القلب واجبه مبهوراً أمام الحياكة المُتقَنَة، القمر ومساقط الظلال. ضوء وظِل، بينما تذبل البيوت في مركز الكرة الأرضية فتذهَب الصور ويأتي الجوع أحياناً. تأتي قَنازع القَش فيُبصِر بيت حلاّب على أعلى التل ويسمَع مضخة الماء تُغذي تفرعات السواقي المُنعطِفة بفضل المنحدرات لكي يَنداح ماؤها في زغب حطام الحقول... عواء.

سمعَ صراخاً في أقصى القرية فخَفَّت قدماه، ثم تباطأتا. هذان القدمان بالتحديد، تجران شخصاً إلى جهة الصوت. ثمة أقدام أخرى تجُر ظِلال أشخاص إلى جهة الصراخ.

الذي في أقصى القرية. جلبَة. ضَجَّة، حياة الآخرين. جاء رجل مسرعاً وتوقف بالقرب منه على أمل أن يسأله شاهين: ما الذي يحدث هناك؟. فلم يجبه. ضجّة. جلبة. لا مناص. أناس يفور فيهم الدم، وهو أيضاً يبحث عن الصراخ لكن الأمر لا يعنيه لأنه مليء بالغبار، مليء وملفوف. الليل في جانب العالم. وحده في هذا العالم، مع ذلك فهو وحيد تقريباً. غير متأكد بأنه سمع صراخاً وأن رجلاً ما، ظِل رجل، سأله: ما الذي يحدث هناك؟. يأتيه الصراخ فيشعر بالأحشاء، مجرد أحشاء من ألياف دافئة. لحم شفاف ودم أحمر، يضع كفه على جبينه، يقول: ساخِن. تنزلق الكف فتمتلئ قبضته بأنف فيقول: أنفي، ربما كان أنفي. يستمر المشي ويرتفع الصراخ كشيء إلى الأعلى لا كصوت يزداد ويصير بعيداً جداً... هناك.

يضحك في داخله ثم يفتح عينه فيُفاجَأ بضوء النافذة، مبهوراً بمربع منير عبر الزقاق. أربعة رجال وامرأتان، يضحكون بعيون دامعة بين رِفعَة الأثاث، بلا أية علامة في حائط الجص باستثناء فضلات الحمَام على حافة الشُباك السفلى، تلك التي تَذبَح صورتهم من المنتصف، ثم أنبوب تصريف مياه المطر يبدأ من الأساس.

ينحنون بحركة واحدة كصلاة إلى الأسفل فتنبثق عِبارة واضحة بعدما يملأون الهواء بأماكنهم؛" ذكرى المُعَذَّب صابر يوم الأربعاء بعد المطر ". يضحكون في مربع الضوء المُحَدَّد بمربع ظلام الهاوية ذي الأفقين المليئين بالحَذَر، حافة الحوض أو المائدة أو أي شيء يجلب الثقة بلا اكتفاء ولا خسارة لأنه ينبثق كهدية مفاجأة: ضوء. وتقوم المرأة التي في أقصى اليمين وتدور حول نفسها ثم لا تقو على الاحتمال فتُسند رأسها فوق كلمة " صابر " ناطحة الحائط وهي تهتز بحركة تدل على الذبح حتى النهاية.. وتنتهي فعلاً، منزلقة منهارة نحو الأرض، إذا كان ثمة أرض أصلاً، في حين يبقى صدى ضحكتها صاعداً من محل السقوط نحو مكان الخفقة الأخيرة لقميصها المهتز ذي البقع الحمراء، وقد سحبت بأصابعها حروف " صابر " الفحميّة فتبعثر الاسم نهائياً. وتوقفوا عن الضحك فجأة ناظرين إلى المرأة الثانية، وهي أصغر سناً إذا لم تخنه مسألة القرب والبعد عن مصدر الضوء، بعشر سنين أو أقل، إلا أنها أقل فتنة من الأولى المنزلقة لذا فقد أصلحت الفارق بالمساحيق وأخذت تفك شريطاً أحمر عن عَقصة شَعرها ثم ترتبه من جديد. انخفض صوتهم تدريجياً وتحوّل إلى كلام هامس فقام الرجل الأسمر البدين من مكانه، وهو بدين لأن بطنه كبيرة، وهو أيضاً أحد الرجال تقريباً. قعَد لصق المرأة بينما انشغل الآخرون بنقل بعض الأشياء من مكان إلى مكان قريب. فأين المرأة الأخرى؟ إنه يَنقُر. أين المرأة التي انزلَقت؟. يَنقُر فمها ثم يمسح فمه.

يَنقُر عنقها فتمسح عنقها. ينحني قليلاً فتظهر يده ماسكة بكُرة صغيرة حمراء. يضع الكُرة الصغيرة الحمراء في فمه، ويلوكها نافخاً خده المعاكس لجهة المرأة وهي تفعل مثله، أي إنها تضع كُرة صغيرة حمراء نافخة خدها المعاكس له...

تنبُت المرأة الأولى في منتصف النافذة وتدقق في الشُباك المقابل ـ شُباك شاهين وهو يقول: شُباكي. ثم ينسحب قليلاً مفكراً بكيفية ظهورها، فأما أنها زحفت أو تدحرجت من أقصى حتى مقدمة الغرفة. لكنها لم تُطِل التحديق فقد أشار إليها أحدهم أن تقترب ليبدأ الهرج بصوت واضح هذه المرة. حديث عن غطاء السيارة وضرورة وجود مُلصَق لفتاة جميلة عند مرآة السائق. ثم تحدثوا عن عمق حفرة الأساس وأنابيب الماء ومزهرية الخشب ذات الزهور المطاطية. وعن الدهشة المحتملة في الغد حول مسألة الحصول على ملاعق وسكاكين علامة الجَمَل. انقطع الحديث بعدما تحوّل إلى همس، وانحنوا إلى الأسفل مجدداً ثم رَفعوا أعناقهم بحركة واحدة كشرب الطيور، انفجر الضحك. عيون دامعة وحركات استنجاد، أحدهم يتشبث بالآخر حتى لا يسقط، أو يتمسك به. نشيد ست فتحات. ضحك ضحك حك حك. يضحكون ضحكاً. ضاحكون في الضحك... ويضحك شاهين باضطراب ولكنه ينسحب إلى الزاوية ماداً يده، بلا تفكير، إلى طرف الرداء، ودون قرار أيضاً بدأ يهتز بعذاب نادر في محاولة يائسة لتثبيت صورة ما، أو واقعة تتكون إثر فك أزرار الصدر أولاً فتقَوَّس بأقصى ما يستطيع لكي لا تذهب الصورة، مُلصِقاً خده ببرودة الجص... لكن الضحك المقابل بدّد الأوضاع كلها... وأخيراً أنقذه الانزلاق والوقوع فلم يحاول مرة ثانية لأنه يعرف أن لا فائدة من المحاولة.

سَمع في الأسفل صرير الباب، وبقفزة واحدة اندَس تحت اللحاف وبدأ قلبه يَنقُر ـ الآن. ينقُر بأمر من وقع خطوات السلم. السلم يصعَد وليس الخطوات أبداً. عضّة ارتفاع الخفقات تتلازم مع احتكاك الخُف النسائي في لحظة قصيرة أكيدة الوقوع عسيرة النسيان الذي يأتي أحياناً بعد الاهتزاز كحفر في الذاكرة. مطلقة حتى وقت ارتسام الباب على الحائط بفعل ضوء الفانوس، ثم تصير الغرفة مضيئة مليئة بالباب. الباب هو الغرفة، والغرفة هي الباب. باب من الضوء. شاهين يا ولَدي لماذا تركتني وهَرَبت؟. تقول: يا ولَدي. وهي تعني ابنها، ثم صرخة يعرفها: لماذا هَرَبت؟ كلّمني.. انهض أنت. تضغط عليه بالنوم فوقه قاصدة التهديد بالخنق، غير أنها تدور بعد ذلك قائلة:

لو لم أكن أمك لقلتُ بأنكَ لست ابن أبيك.. يوه انهض حبيبي.. أتدري؟ سأقول لك. تقول له: إن وزّة أخبرتني عن أبيك، قالت إنه يتنفّس لحد الآن غير أنه لن يجيء الآن، لقد قاده الأرنب المُبَقَّع إلى أرض مليئة بالأرانب المُبَقَّعَة و.. غداً سنبحث عنه أنا و.. أنت. تقول هاجر: غداً، أنا وأنت. شاهين هل أنت نائم؟ حسناً، بالنسبة لي لن أستطيع النوم، هذه الليلة على الأقل....

ونَزَلَ الخف ببطء على السلم متوافقاً وتقلُّص الباب حتى تحوّل إلى خط مضيء فتلاشى. يقول شاهين: تلاشى. ويدفع الغطاء فلا يَرى نافذة مقابلة لكن صدى ضحكاتهم. صدى الضحكات كان يأتيه عبر تواريخ بعيدة: هناك كانت امرأتان وأربعة رجال. ست فتحات ضاحكة.. والآن ذهب الجميع إلى النوم بعدما أتعَبهم الاهتزاز...

وبقي الزيزان يُصَعّد غناءه في ممرات الشوك، وأصوات عواء ملتاع لضواري جائعة. يفكر بشيء واحد تقريباً، واقفاً حتى أطراف الفجر بعدما فشل في قراءة الساعة بسبب الظلام حيث يسمع دقاتها كذكرى مُهمَلَة ساقطة عن ارتفاعات مُظللة اعتبرها الآخرون غروراً في لحظات السأم إذا ما قيست الأمور من وجهة نظر التنكيل بالذات لأنه لا يجد شيئاً يدفعه إلى فعل ما يفعل. لا شيء. ليس لأجل شيء أبداً وليس لأجل نفسه تقريباً. لا شيء. لن يجد شبيهاً له، يقول: لن أجِد. ويعرف قسوة هذه الكلمة لذا فإن الغرور يبدأ من تلك اللحظة التي تُذكره بالأماسي الطيّبة المسبوقة بصباحات ندية أيام العَنزات الثلاث في المُنحَدَر. مهنة الإنسان الأولى من أصناف المهن الحُرّة. سِحر النُعوت والنداءات المُبهَمَة المُوجّهَة إلى القُطعان بقصد التحكّم: " ترش ترش، تعني: تعالي يا نَعجة. هسّو: اذهبي عني. ترد هؤهؤهؤ: اشربي الماء. هخ هخ: لِطَرد العنزات... إلخ" لذا أيضاً فالعلاج من هذه البُقع هو الضحك وليس الكلام أبداً أبداً. الضحك دائماً. الضحك المرتفع لاستخراج زوايا الانكسار إلى الأشياء بدليل التجائه إلى مسند الشُباك بحجة الشوق للفضاء أو الصمت بحجة التفكير بموضوع خاص.. واستمر هذا الأمر حتى وقت تبدّل أحاسيسه الحالية حول الأوراق اليابسة التي تطرحها أشجار الخريف بمصاف الرعشة الآلية ـ لحظة القيام لقراءة الساعة. نظر إلى الليل، دبيب الفضّة الشفافة على السفوح، وفي الأفق ثمة بَياض مُمَزّق، غير أنه لا يملك القوة الكافية، تقريباً، لقهر خجله من جرّاء النظر إلى الخارج باعتباره مرتفعاً عن الخريف.. وحتى لحظة إقران تلك الأوراق بتخيّل النحاس في امتداد لا حدّ له. امتداد أكيد لا حدّ له. فالعلاج من تلك البُقع هو الضحك. الضحك دائماً وأبداً. إذ لا يمكنه نسب النتائج إلى ترتيب معيّن في حياته لأنه لم يضحك ضحكة حقيقية ولو لمرة واحدة بعد خديعة الخِتان، مع أنه يميل إلى ذلك أحياناً فيقول: لا بأس. لا بأس. وقد تَمَثَّل كثيراً بالطفولة، لأن الطفولة ضباب. فكّر ذات يوم بأنه مُختلِف لأنه يحس بألم المسمار؛ المطرقة من طَرَف وصعوبة الاختراق من الطَرَف الآخر. أو يجب أن يختلف لأنه يحس أحياناً بألم المسمار. فلا يمكن إحضار ذكرى بعيدة بدون تغطيتها بالضباب ولفها بالمفردات المُبهَمَة.. ونداءات مستمرة حتى لحظات الفجر الأولى: تَرد هؤهؤهؤ. يسمع صراخ الليل المُنسحِب. خديعة الخِتان وهي الجديرة بالتذكُّر دائماً، يوم جاء الأب مائلاً مع السفح فاستطاع أن يميّز البهجة في عينيه رغم بعد المسافة بينهما، ولوّح له بالكُوفية: " اترك عنزاتك يا بُني.. تعال يا شاهين.".

وتردد في البدء لأن وقت العودة لم يحن بعد مُقاساً بالظِل تحت القدمين، لكن الأب كان جاداً فلن يعاقبه إذا ما عاد مبكراً هذه المرة. واحتضنه هذه المرة. تلك المرة البعيدة. وأحَبه هذه المرة لأنهم يوزعون عُلباً ملونة مليئة بحلوى ملونة في بيت عبد المجيد. حيث كانت الزغاريد تَخرج من أنابيب البنادق، أما النساء فيُطلِقن الرصاص من أفواههن. بهجة. واقفون. ألوان. روائح مُحَضَّرَة من أندر الأعشاب.. وصراخ أطفال، فلن يستطيع الهرب لأنه محمول بذراعين قويين. عندها فقط، علم أن لا جدوى من الرفس ـ لأنهم سَقوه بالقوة، في مرة سابقة، حليب أنثى الحمار لأجل الشفاء من السُعال الدِيكي، فاحتاج لرائحة السُوس. أحياناً ذلك السُوس الذي يستدعي البكاء... آه السُوس! الرعي المتواصل بلا عودة. لكنهم أجلسوه أخيراً مُنفَرِج الساقين تحت عمامة صفراء وكلمات تُركية مُبهَمة ومنخرين كثقبيّ فأر مليئتين بالدّغل فقال: " هَخ هَخ " وأفرجوا ساقيه أكثر، وقال

التركي: " ما شاء الله ماش الله... بال على المخدة ". وانتهى كل شيء. ثم حُمِل ركضاً في الألم أو ركضاً في السرِ بين مئات العيون التي استطالت حتى الآذان.. وهكذا أصبح بدون ذلك الشيء الذي كان بين الساقين لأنهم استبدلوه بلفافة بيضاء ثم بكُرَة حمراء فيما بعد، ثم بشيء جديد ذي قُبعة ناعمة، لكي يرش البول مباشرة. البول يتدفق من الثقب، على حدّ زعم الصياد.

بقي والزيزان يُصَعّد غناءه في ممرات الشوك، وأخذت الأشياء بالغياب مع القمر، أو بتهشم القمر لأن الظِل انتفَخ، ولأنه سقط مع دقَّة حاسمة من دقات الساعة ثم استيقظ رأساً وفق عادة النهوض قبل الشمس ليرى الطيور تُمزق فضّة الفجر بأصواتها رابطة بعض الغيوم بخط أسود بَليل ومُتقطّع. فَتَح النافذة. على اعتبار أن فتح النافذة، بل مجرد فتحها كان يُقرِّب إليه سماء زقورات الآثار: هاهي قريبة، هاهي. ويدخل فجر الحقول في غرفته فيرتد؛ منشفة. ساعة حائط. رفوف القواقع ـ ملابس الطفولة. ويداه في الظِل مفتوحتان للإمساك بشيء ما...

ومنذ عشرين عاماً تَصعَد هاجر إليه: ألا تفطر؟.

فينزل إلى اللبَن الرائب والشاي ويسمع نشرات الأخبار الأولى: " زلازل أمريكا اللاتينية. فيضانات الهند. انقلابات. عمليات الفدائيين العرب. مجاعات السود. محادثات نزع السلاح النووي. مخدرات. تجسس. جلسات مجلس الأمن ـ أما آخر الأخبار فكانت عن الجمعيات الخيرية للفاتيكان، وفضائح جائزة نوبل...". بعد احتباس طويل عن رؤية الفصول وانتهاء القَناعات وبعد أن صار رضاه نادراً، قرر أن ينقُر الغلاف مثل فَرخ في بيضة ويخرُج إلى الناس الذين اعتادوا غطساته الطويلة، وصاروا يعيدون جميع الرسائل إلى صندوق البريد، تلك القادمة من أصدقاء هواة التعارُف والمراسلة أيام الدراسة الابتدائية، فيقولون: شاهين محمود؟! لا نعرف هذا الاسم. ولكنه ظَل وفياً لعوّاد حتى نيسان الماضي وقت ابتداء غطسته الأخيرة. ذلك لأنهما متشابهان فقط.. بخاصية نُدرة الكلام، وهي إحدى الخصائص. فيما عدا ذلك فلا يلتقيان في شيء غير تلك الملاحظة التي لا يعرفها أحدهما عن الآخر؛ ضخامة لوامِس الحِس.

خَرج بخطوات مربوطة مُنزلاً عينيه مع التَل حتى استقر بصَره بنهاية قَطِفَة الطحالب عند صخور البئر المُحَزَّزَة بالحَبَل. ومن أقصى الأخدود لمح أيدي النساء تشير إلى شَعره المُبعثَر وعَقفته في السير: شاهين!! شاهين!! شاهين!!. فتوارى بسرعة خلف القُن منحدِراً إلى جنوب القرية حيث وادي السِدرَة، ساحة الطفولة، مدرسة الشتائم. الأمنيات برؤية منام الشمس خلف الجبل. آثار الدعلج في الأخاديد. رفوف طيور الشقراق ومَهاوي القُبرات بين الأشواك، وشيش الغروب في المُنخفَض؛ سُرّة أنثى كبيرة مُمَدَّدَة مُنَصَّفَة بالنهر، والقِمم أثداء تُرضِع الشمس. لحظات استطالة الظِل إلى درجة الالتفاف حول التَل حتى مجيء المُزعِج. الليل هو المُزعِج. ليس مزعجاً بالضبط. طويل تقريباً، بحيث لا يمكن تخيّل الوادي في الليل، أو مجرد تذكره لأنه ضاج بحيوانات غريبة وأشباح ومسوخ لاسيما أنه محيط بتَل المقبرة من كل الجهات. كانت الأصوات مجموعة حتوف تهدد المنازل. غارات الضواري على القطعان، الثعالب على الدجاج والبط، الأرانب على البقول، الغرير على القبور، الأشباح على الخائفين. مع ذلك، كان بعض الشجعان والحمقى يتبارون في إمكانية اجتياز الوادي وغرز وَتَد مُؤشر في المقبرة.

وعند حلول الصباح يكون كل شيء قد ذهب باستثناء الروث وآثار المخالب على الطين في كل بقعة من مزارع القطن.

ثمة سِدرة وحيدة في قعر المكان الجدب، وقد أعطَت للوادي شَرف التسمية عن جَدارَة في المكوث والتحَمُّل منذ أزمان الجوع في عهد الجماعات الأولى؛ مهرِّبون، صقارون، سَحَرة، قُطاع طُرق، تُجار أسلحة، ثُوار.. وهي هكذا، لحد الآن تظلِل المشاريع الأولى لأحلام بناء الأسَر في أربُع الأطفال الرعاة من كلا الجنسين، لذلك فقد نظر إليها بجلال وضراعة. كان يمر بها يومياً ويحسبها بعيدة لأن الناظر إليها من كتف الوادي، مهما كان الناظر، يراها صغيرة كأشواك قُنفُذ. أيام التلازُم الأول، حاجَة الآدميّ إلى أخيه وحاجَته إلى عواد الولوع أبداً بالطين، بحيث صار يَعرف، بمرور الأيام عن طريق حاسة الشم، إن كانت الأواني ستَنفَطِر، أو أن أرجُل الحمير

ستسقُط بعد جفاف الطين. الحمير الطينية وليس حمير النهيق حتماً. كانت السِدرَة بمثابة مخزَن لتلك الاختراعات، لأنها ستُحَطَّم من قِبَل الرجل التقي على اعتبار أنها أصنام، فيضطر الصغيران ـ عواد وشاهين ـ إلى الحلم بدخول سلك الشُرطة.

ثمة، أيضاً، تلك الدروب الرفيعة المرسومة بحوافر القطعان كحبال عظيمة تشد السدرة إلى جهات الوادي فتذهب محاولات السيول عبثاً في تعرية جذورها.

وفي تفاصيل مُفزِعة كأعناق ملويّة يمتلئ الوادي بترسبات تفضح وهماً قديماً، كاشفة أكذوبة الاتساع السحري في زمن غابر. هل كان الوادي واسعاً وعميقاً بحق؟. يسأل شاهين. ولكنه وصل سن اليأس. الوادي وليس شاهين أبداً أبداً. نقول الوادي ونعني الأنثى لأنها منخفَض. نعني الوادي وليس الأنثى أبداً. وصل سن اليأس بعد هجران الضواري والأشباح، ثمة ما يُخيف: ثقوب القوارض في جروف قديمة وقد هوت عظام الموتى بفعل السيل، مجرد مسحوق أصفر غير مثير للبكتريا.

وكَفّ كل كائن عن الهجوم بعد سنوات الجوع لأن المُسوخ أكلت بعضها، ورحل الضعيف الذي كان قوياً إلى ظِلال قطنية في أعالي الجبال. كان آخر الضعفاء في الحلقة الضائعة من خيط السلالة. وكلما حثه الحنين إلى القوة زار تلك الهُوّة زيارة عاجلة وأخذ يعوي ويعوي ويعوي.. حتى إذا أجابته الجروف امتلأ بحب التكرار فبحث دون جدوى عن شبيه يسمونه الأنثى. عوّاد ملتاع مثل خسارة نهائية. لا شيء يشبه شيئاً. يقول. فأين الضواري؟ وأين الذي كان ساحراً كَرَقَّة فَرَح تلقائي؟. لقد كَفَّت الأرض عن تجربة النشاط وأمست التلال والصخور والأشواك والقُبرات مجرد تِلال وصخور وأشواك وقُبرات. وسار حيث يفتح الوادي فمه ليأكل حُطام مزارع القطن. اتساع مضطرد حتى حدود النهر بمحاذاة الجبل. حوض خصب يغري تُجار القطن لبناء شُرَف عالية تتيح لهم رؤية الحزام الأخضر منذ الوهلة الأولى، يستمعون إلى صوت تَفَتُّق الجوز عن دراهم لامعة في أماسي القمر بعد الكأس الثالث. هناك وجد شاهين صديقه القديم فلم يعرفه للوهلة الأولى لأنه كان يعضّ سنونوة سوداء، فقيل له: ليست سنونوة سوداء وإنما شارباً أسود. آشاهين**!!** شاهين صديقي.. لقد جعلك النوم أصفر أصفر. وأنت أصفر كالمغول. ويضحك لأنه اكتشف الضحك النابع من مربع الشُباك المضيء و: اقعد يا صديقي، أرى أنك لم تكن تحب الشاي إن لم تَتَبدَّل، لقد فعلتُ الكثير بغيابك، بعض الطموح، رسوم أخيرة لأوضاع شَرار في حالتيّ الجري والوثوب لأنني لا أحب امتداد البُوز مع اليدين الأماميتين. شَرار اسم كلب عزيز من أصل هجين لذا فهو متهور بعض الشيء لأنه حائر بين العوامل الوراثية. يقول عواد: اسمح لي بإعطائك سيجارة. المشاكل التي تعرفها مع الوالِد لم تنته لكنها تخمد تحت خدعة التَجَمّع ثم الانفجار في أوقات متباعدة.

كان الفضاء مبتدئاً من الجُرف بمثابة شُرفة لاصطياد البرق الفني. وبالنسبة لعواد فكل شيء محسوب بالتفاصيل تقريباً حتى ملابس الشغل المُزَيَّنة ببعض بُقع الأصباغ، انتهاءً بتفسير اللقاء الحميم الذي لو كان بين عواد و... عواد نفسه لاعتبرَه تاريخياً قياساً إلى شخص مُنفَعِل يواجه حَجراً عزيزاً. وشاهين: اسم هذا الحَجَر. مرحباً. يقول. مرحباً مرة أخرى بمثل هذا الشوق. مرحباً دائماً.

كان عواد منشغلاً طوال الفترة السابقة بعلاقة غريبة مع الكلب شَرار. يقول: اسمه شرار، يحب لحم البط ولا يحب ثمر التين. رسمَه في أوضاع الجري والوثوب واستبدل عينيه بزرزاريّ معطف مَطري.

جهاد متواصل بين فترات مجيء ابنة القَطّان لكي تمتدح محاولاته بإعجاب خفي وتُحجّم عينيها حسب الموقف كطريقة للنقد الصامت وهي مهتمة بحياته لتؤكد اختلافها عن النساء وذلك بالنفور من أشغال الإبرة وجلسات نفش صوف الوسائد، حتى أدق التفاصيل. تعرف أن شراراً مولود من كلبة عارف الغَدّارَة التي تعضّ الأطفال كلما اقتربوا منها وقد عضَّت مؤخرة زهرة فاغتنم عواد فرصة وجودها في المغارة، إذ أغلق عليها بصخرة ثم ردمها بالتُراب، غير أنه رأى بعد أيام

جرواً أبيض يسحب خرقة فتأكد من عدم خروج الكلبة وثبتَ له أن ذلك الجرو كان خارج المغارة لحظة الوأد، فبدأ بتدليله مبتدئاً بتفكير طويل قبل العثور على اسم (شَرار) يسقيه ويُطعمه ويُدحرج له كُرة الصوف ويصطحبه في رحلات رسم المناظر الطبيعية، ثم يراقبه في أوقات السأم يتسلق التِلال برشاقة ويصطاد الدراج ثم يضطجع رافعاً أطرافه إلى الأعلى ويفتح فمه مبتسماً، وقد خَفَّفَ هذا التآلف من شعور عواد بالذّنب الواخز.

سمع شاهين فلم يقم بأي رد فعل سوى أنه هَرَشَ مؤخرة رأسه وضحك. غير أن التفاصيل الأخرى جاءته من عواد كأنما من شخص آخر يدير وجهه حُطام الحقول ويتحدث عن أمر خاص، أو عن شرار تقريباً. يقول: وقتها لم يجد عارف خبراً عن كلبته إذ اعتقَد أن الضواري مزّقَتها وهي تُدَرِّب صغارها على التَحَمُّل وخطف القُبرات في الوادي.

وعبر زمن حكاياته كلها يُشعل سيجارة ثم يرميها فينتثر الجمر، بينما كان شاهين يرفس الأحجار عن كتف الوادي فتهوي مصفوعة بحافات أخاديد المنحدَر. يحدث أحياناً أن ينقسم الحجر إلى قسمين، أو ثلاثة موزعاً نفسه في الجوف وكاشفاً عن خطوط بركانية وكبريتية تفضح قرون النمو البطيء وقد غمست عشرات المرات ببول حيوانات متعادية. يقول عواد: أبعَدَتني المشاغل عن صديقي شرار باستثناء فترات الحنين إلى اللعب. يتحدث كنائم فيقول إنه يجده بعد كل مرة وقد اختزَنَ لحماً جديداً تحت جلده. نعود إلى الوادي. مازلنا صغاراً. كلما استقَر حجر شَعر بالاطمئنان. همْس سري خاص يفوق لغة التخاطب اليومية. همس بمستوى الاعتراف.. وبانقسامه عن خطوط تنطفئ جمرة الحرص والرغبة في يقين القلب: تلك الدقات الرتيبة الضعيفة التي توشك، بعد كل دَقَّة قادمة، على الانتهاء. أجَل إنها همسات. يقول عواد ويبين بتلك المرارة الخاصة عبر زمن حكاياته كلها، أنه خرج ذات يوم على صوت شَمشَمَة وراء الباب فوجده يلعق قِدر الحساء المتروك بلا تنظيف، وحين أبصره: حين أبصرني عَوَى بطريقة سخيفة؛ عَدُووو...

اعتَقَد في البدء ـ أمام فضاء حُطام الحقول ـ أن شرار يُعبر عن شوق بعد غياب، لكنه هاجَم، هكذا تُهاجِم الكلاب تقريباً، فاضطر إلى التراجع بطريقة لا يعرف كيف تَمَّت. ونَشَب العداء بين الصديقين.

كان المطر يوسع حجم قطراته فيما مضى، لأنه آخر أمطار العام، كنهر ينسكب من السماء، فخرج النمل المُجَنَّح مع طوفان أكياس القمح باتجاه الحُبوب الراسية عند حافات السيول، وقد لمح، وهو يفكر بكيفية إعادة العلاقة مع شرار، ظِل امرأة يمر في مُربع الشباك. ثوب أصفر تدفعه الريح بين الساقين، فدَخَلَت رائحة قلائدها من الشَق فارتاح وتمطى ثم أطبق كفيه بتوتر بين فخذيه. رأى عزيزة القَطّان. صاحبة الحظ الأوفر من الخبرة بسبب تجارة أبيها وتجواله في المُدُن، لكنها نظرت باحتقار ثم مضَت إلى البئر. يقول عواد أنها كانت تمضي أحياناً إلى البئر في بداية العلاقة فيخرُج بأثرها غير أنه يجِد الفضاء، ويسمع كأنما من بعيد، من بعيد جداً، شراراً يعوي في الفراغ أو يموء بمستوى الأحجار. ذلك الشغوف بلَحم البَط تحوّل إلى نَؤوم مُعرِض عن عَداوات الوراثة ضد القطط، فلم يُبقِ حليب في إناء، أو لحمة في سلّة، وقد تعددت الثقوب إلى حد الاعتذار بالكَسَل لمجرد القيام بمحاولة وضع حصاة أمام القطة. كان عواد يشرح حكاياته منذ المطر الأخير سيجارة أثر سيجارة. غريب غُربَة الأعمى عن مَقعَده. شاهين هو الغريب على كتف الوادي، غير مُصَدّق أن الجسد الذي تُدفِئه الأنفاس خاص به، ولكنه بمثابة عَمود المُنتَصَف أمام الهول الجدب. ذراع الخشب وذراع اللحم شيء واحد، هذه هي. مَن؟.

غُربَة الأعمى عن مَقعَده فيندُر أن يَحدث بينهما جريان أو احتكاك. موت. إهمال.. وإنما مُلقَيان في فَراغ الخريف. فيقول عواد أنه حين خرج بأثرها وجدَ الفضاء وسمِع كأنما من بعيد شراراً يعوي وقد ذهب إلى ظِل الكوخ واختار حَجَراً للتَوَسُّد لأنه في مرتبة منخفضة من الجوع. فجاءه بقطعة خبز وضعها أمام عينيه المُطفَأتين دون حذر من إعادة فكرة الهجوم، فتَشَمَم الخبز وخَفَض رأسه قليلاً وحَرَّك ذيله ثم استدار بحركة طَي القِماش ومضى إلى ظِل الكوخ مختاراً لنفسه حجراً،

داعياً ذباب الكلاب لكي يقرُص جلده بدل القيام بمشقة الحَك. فقال عواد: " حسناً، ستضطَر إلى اعتبار الورقة السمراء قطعة خبز ".

وظل غريباً غُربة الأعمى يُدحرج حجراً آخر إلى الجوف فتنهض حقب مديدة سائلة فيتذكر أنه أراد أن يكون فاعلاً ومتيناً ومتماسكاً دون الحاجة للرعشة والهاجس والأمنية. وفتح فمه على أمل أن يبتلع التضاريس ويهضمها ثم يتقيأها مُرَتَّبَة كما يَرغَب، كاملة الصفّات ليتبادل معها الألفة، ويريد أن يقرر انفصال السِدرَة عن مكانها فيراها تنفصل، لكنه يرتد حذراً بعد مَهوى الحَجَر. يقول: كل ذلك بسبب شخص مُعيَّن، بسبب مجموعة أخطاء لمجموعة أشخاص يتكرر وجودهم... ويترسب فيه خط بُركاني ليعزله عن بعضه. بسبب آخرين يشبهونه، لكن أحدهم لا يبالي ليلة سماع الصراخ في أقصى القرية، فيُنَصِّف الحشد بلا فضول مُنحَدِراً نحو الأدغال لاصطياد الدرّاج الذهبي. في الأصل: لكل طريدة وسيلة صيد. الكل يهرُب في البدء ثم يمتثل بعد التَعَب... وأخيراً يهوي إلى الجَوف برقّات متتابعة مصفوعاً بحافات أخاديد المُنحَدَر، ويحدُث أحياناً أن ينقسم إلى قسمين، إلى ثلاثة... فيقول عواد أن أمه فهمت بسبب إعراضه عن الطعام متضامناً مع شرار بعد قيامه بفَورَة إخضاع حين صَب اللون الأصفر على حالة الركض وبقيت حالة النوم كأنما كان يركض في حقل قمح واختفى. يقول: اختفى. ثم يتمدد على السَرير فيأخذه العطاس. أحياناً ينظر إلى شجرة الصفصاف تقرَع الشبُاك بأغصانها، وهو يسمع قَرع أغصانها على الشبُاك فيستنتج أن الريح الشمالية تحاول تجريب قوتها باقتلاع السقوف. وسمع في الأسفل أصواتاً مُعَقَّدة تُعطي لصفير الريح صفة الغُربة أو التنافس. ليست غُربة الأعمى عن مَقعَدِه، بل غُربة التنافس. وشَعر بمعاناة الهواء بعد الاصطدام بالتِلال. وفي منخفَضات سَمعيّة، ربما بعيدة وحذرة، صَعدَت كلمة (شَرار) كإبرة طويلة إلى حُنجَرته، بهمس لا يمكن احتماله، فانتبَه في البدء وأرهَف لكي يَسمعها ثانية، لكن اشتداد قَرع الأغصان على الشبُاك أقنعه باستحالة الإمساك بأية كلمة بَعثَرَها الهواء مع الثياب المنسية فوق الحِبال ونباتات الدرداء الخفيفة. وعند أُسُس البيوت، حين رفع عواد بصره عن اللوحة الصفراء، كان العشب الميت يهتز، ودخلت الحَشرات في الثقوب، وجلب الأطفال ملحاً لكي ينثروه في دوامات الريح لتحقيق رغبة الطيران، لكنهم اعتذروا للعاصفة بشكل تأنيب لأنها سوف لن تُنزلهم بهدوء بعد أن ترفعهم بعنف. وهناك أيضاً، أبصَر الاختفاء التدريجي لخطوط لُعبَة (القُرلَي) على منحدرات التَل حيث الشجر يشتم الريح لكي يعود إلى وضع الاستقامة. وكان ثمة صَفير قَصَب السقوف ورفرفة آذان الحمير، فقال: " ستمطر لآخر مرة " وصار مُتعَباً بعدما أعتَمَت الغرفة عتمَة صفراء على الشبُاك. فتح قميصه وهبَط في الريح فصاحت عالية: " لا تخرُج يا بني.. " لكنه وجد نفسه في الدروب يتسلق تَلاً مُراهناً بتثبيت نفسه بالقوة، ضاماً ذراعيه في وضع الصلاة، فتنغرز ذرات التراب في جبينه وتستقر إلى الأبد.

يقول عواد أنه مدّ ذراعيه.. هكذا، محاولاً إيقاف الريح. ويقول أنه كان يضحك بعدما انحدرَ إلى جهة معلومة. إلى شرار تقريباً. ودخَل دار عارف من الباب الخلفي حيث ترقُص درفات النوافذ الخشبية، وهناك رأى شراراً يتوَسد صخرة باب الكوخ فاقتَرب منه. يقول: " اقتربتُ منه. لمسته. أحببته أكثر من أي وقت، مسَّدتُ شَعره.. " وقد هدأت الريح عندما بدأ المطر. أما عيناه، " آه "، كانتا أكثر حناناً من أي شيء، لكنهما تحوّلتا إلى كُرتين زجاجيتين تقريباً. أنتَ لم ترَ عينيه ـ أين أنت؟ بينما امتلأ أنفه بغبار شجر التين....

كان المطر يُسع حجم قطراته فيما مضى لأنه آخر أمطار العام كنهر ينسكب من السماء، فخَرَج النمل المُجَنَّح مع طوفان أكياس القمح باتجاه الحُبوب الراسية عند حافات السيول، وقد لمح وهو يفكر بمرارة الذكرى صديقه يرفس الأحجار فتهوي إلى الجَوف، حَجر بعد حَجر.. ويرتَعِش على لمسة كَف خفيفة فيقابله وجه عواد: صديقي، لماذا هَرَبت؟ كنت أراقب حركاتك. لكنه كان مُنشغلاً بالتنفس ومراقبة مَهوَى الأحجار. يقول له: إنني بحاجة إليك. فيسقُط آخر.. يهوي مصفوعاً بحافات حفر السيول، ثم يستقر في الجوف بلا معنى، بإشارات مجردة إلى الأشياء: هذه صخرة. هذا أخدود. هذه شوكة. هناك قُبَّرَة.... إلخ.

في مَرسَم عواد تبدّل الإحساس الأول عند رؤيتها تحت كَشاف الضوء. مدَّت كفها للتعارف: عزيزة القَطّان.. أيه، شاهين أليس كذلك؟. فحوّل وجهه عن ابتسامتها الخائنة نحو جدران الكهف الهندسي، ابتسامة حيوان مُحتَضِر. كان عواد يَحَضر بشيء من الارتباك والسرعة أدواته الخاصة، ذيول التشريح وشَفرات القَشط. يُهَيّج الأصباغ لكي يحطم العطر النادر. ويقول: كنت على يقين بأنكِ ستبدلين الفستان، جئتِ قبل الموعد. فتقول إنها متشوقة لرؤية صورتها مُنتهية. ولكنني متأكدة بأنها لن تشبهني أيه.. العَم هنا؟. ويقول: في الجامع كعادته. ها؟ لماذا أنتِ متأكدة؟. فتقول إنها لا تدري، هكذا. شاهين ما رأيك؟ فيجيب بأن الأصدقاء الذين يلتقون بعد غياب، يتحدثون عن موت كلب. اسمه شرار، مولود من كلبة غَدَّارَة وهو هجين لأنه يحب أكل البط ويدعو ذباب الكلاب لكي يَقرُص جلده بدل القيام بمشقة الحَك. ويفاجأ بسؤالها وعينيها الشيطانيتين تحت الضوء. أنا؟ لا أدري. لم يرَ تلك التعابير في امرأة أخرى لأنه لا يعرف غير هاجر ولا يعرف كيف يقول لها: أمي.

عينا عزيزة، أي لون لهما؟ ليستا بعينين، وإنما كائنين، حيوانين مُستَقلين عنها. لم يعرف مقدار اتساعهما لأنها تُحَجِمهما حسب الموقف، وكيفما تشاء. ولكن الانطباع الذي لا يمكن إنكاره، ذلك النزول أو الانحدار في طرفيهما البعيدين، التوافق الفظيع مع موازاة الحاجبين في لحظة الاستفهام. دَهاء مُنبثِق عن توتر القوس باتجاهه. الضوء العميق حتى زاوية الأنف بحيث لا يمكن إنكار الذُل الذي أصابه بعد التحديق فيهما. أي لون، أي لون لهما؟. كشَفَ له السواد الغائر شيئاً من الذكاء والاستدراك السريع لأنه أبصر الظِل الشفيف لصورته في لحظة الاستفهام والاتساع العسير ـ بحيث تَضطرّه إلى نسيان جميع الأجوبة الممكنة نظراً لخيبة اللغة في التعبير عن المشهَد. إن كلمة (لَذة) أبعد ما تكون عن نقل الوقائع الشبيهة بالموت تقريباً أمام استدارة العَدَسَة في حالة الاستفهام. ليس الاهتزاز في الزاوية ولا شُباك الضحك ولا العَنزات الثلاث على المُنحَدَر، بل ربما رائحة السُوس. ولا حتى رائحة السُوس. آه السُوس!! أبداً. يقول بأنه سمعَ كلاماً، كأن ذلك لا يعنيه. ولكنه أمر جدير بالإذعان أمام مفردات الفسيولوجيا البسيطة. ليست مجرد عين. يقول: هذه العين بالذات. أي لون لها؟. إنها الحياة مُكَرَّسَة في لحظة الانتباه إلى حركة دخول النَصل بطيئاً بطيئاً في القلب. وهكذا حين أراد التعبير عن فهم الإبهام، قال أنه يَعي وقائع موته كمن يُنَفذ خطة طويلة بَذَل في إعدادها زمناً يمتد من آشور بانيبال حتى القيامة. مع ذلك، فالأمر مُحال مُطلَق، وليس مُحالاً تقريباً أبداً أبداً.

واستدارَت لتُعَدّل ثوبها في محاولة ما لزيادة انتصاب النهدين، ويقول أنها تُعَدّل ثوبها لتحفيز الارتفاعين. فلاحظ خصرها الدقيق الذي يقلل من تأثير حِدّة وجهها، نزولاً إلى الارتفاع الواضح للردفين بدرجة تدعو إلى اختراق المألوف واحتضانها من الخلف كيما يُحِس بحنان اللحم وأهميته، أو لَذة الخَطّ المُنَصِّف ـ اسمها عزيزة لأنها لا تشبه صُوَر الاهتزاز المُستَحضَرَة ـ كيف يكسر الفستان وينساب إلى الجَورَب الشَبَكيّ، ويؤشِر الحِذاء الرياضي المُنخَفِض. الخَطّ المُنَصِّف. شيء ما يُذكّر بالسَرير عندما تتحول البساطة المُصطنَعَة إلى نوع من الفِتنة.

ولكنها تَقتَحِم، وهي تُطيل نطق الحروف وتُعَذّبه بالتَشديد على السين، كأنه يحس بانتظام أسنانها، بروعَة اللسان المُمكنة خلف الانتظام الطبيعي. إلا أن ذلك، كل ذلك تقريباً، كفيل بالنسيان عند حضور امرأة أجمل منها، لولا الخيط الغليظ القُطني الذي شَدّت به شَعرها بحيث بدت كأنها تنسَكِب جزءً بعد جزء من قمة الرأس، تسيل مع خصلة الشَعر عِبر الخصر حتى انكسار الثوب بحُفرَة الردفين مما يعطيها صفة مَلَكيّة غالية، أو شيئاً من هذا القبيل..

وأشار عواد، إشارات لا تُخفي، بأن يبدأ الرسم ـ رسمَها هي، صورتها، صورة عينيها على الخشب المُحَطَّم الجاف حتى يصل ذات يوم إلى سر بياض العنق تحت كَشّاف الضوء.. وكل ذلك يبدأ تقريباً، من استخراج التعابير في وجهها المُدَبَّب الرائع.

بعد تجربة ساعتين من محاولات رسم الخط الخارجي الذي يتغيّر وفق طبيعة الخَجَل أو إنزال الرأس أو وضع اليد على الفم أثناء الضحك، وقد يَحمَرّ وجهها تحت الضوء ويستمر في الاحمرار

حتى وضع الألفة والمَلَل من الجلوس. وكانت تلك المُثيرة تُوقِف عواداً بِنُكاتها فيضحك لأنها تمطّ الكلمات وتُكثِر من لفظة: ايـه.. ايـه.

وعندما انتبه شاهين إلى وقفَة المحَل الواحد، وقفته الجامدة، اضطَر لطلب الإذن بالانصراف مُؤكداً عودته في المرة القادمة.

في الدروب الهابطة، مرة أخرى. ظِل سيجارته، المُهداة من عواد، على الجُدران. أبواب الخشب يميناً، أبواب شمالاً. وعلى رأسه تُظَلِل السقوف فينزل الفيء إلى عصَب البَصَر. حكاية المرأة الولوعة بالمَرَح، قال لها عواد: اجلسي بمحاذاة الشُباك ليُتاح لكِ رؤية تناثُر الحَمَام فوق الطابوق النافِر. وكانت السماء وراء الأسلاك خريفيّة صريحة. ولعزيزة عطر خاص، عطر الأرضيات الرطبة، رائحة حظائر، بينما الأبواب العتيقة في الحيطان العتيقة تُفضي إلى نزول يَأكل جص الأساس باتجاه رسوم الأطفال بالطبشور وفحم المواقد الخابية. عزيزة امرأة ذِئبة. طريق يمتد حتى الجبل. شمس وقارب. تقريباً، هو من هذا النمط. يعتقد بأنه أبصَر وجوهاً تَخرُج بمحاذاة قبضة الطَرق، وتخرُج معها رائحة المحتويات ومياه مجاري الصابون أسفل الخشب البُنيّ المُرَصَّع بمسامير عريضة الرأس.

كانت خطواته المنفردة تبين للناظرين ضرورة الضحك، فكل واحد منهم أخرج نصف جسده وهتف بدهشة: شاهين!! شاهين!! شاهين!!. دهشات متوالية. أصوات متناغمة تتجمع لتؤلف نشيد دهشة واحد: شاهين!!!. لأن المطر قطرة فوق قطرة، والحقل بذرة فوق بذرة. لحظة أن تضع واحدة اسمها خديجة كفيها بين فخذيها وتَحّمَر أمام امتداد من الأبواب المصبوغة بألوان الأعراس الفاقعة، فينزل بصره إلى أوراق كتاب مُمَزق، عبارة تقول: " هل بإمكانك استنتاج قاعدة لضرب كسر عشري في ٢٠٠٠؟". فعاهد نفسه على نكران وضعية الخفة والاحتفاظ بالوقار الخاص معتقداً أنه تجوّل في أماكن شبه مغلقة، محتاجاً بشكل ما إلى ضرورة الانزراع في الحياة متحرراً من الغطس الخاص، فقد قرر أن يحاجج عزيزة بصراحة الديك بعد أن يُدرب نفسه طوال الليل على طريقة لفظ الكلمات الأولى، غير أنه فُوجئ بالجزء المعتم لدرابزين السياج الملتوي، حيث يختَرق شجر الآس المُعَطر تشابُك القضبان، ثم رفع رأسه فكان منزل حلاب. جزء ما قد نسيه الصبّاغ.

أغمض عينه واستدار فرآها تبتسم بوجه مُجَعَّد كسيول المطر، وحين دسّ يديه في جيوبه أحس بدفء وضيق، إحساس كثيف كغرين النهر سيمتد إلى أيلُولات قادمة دون أن ينسى المصافحة الأولى؛ سلام دافئ في أصابع منسيّة. وسمع عند طرفيها اللذين ينزلق عليهما المُبرِد، فضائح المدن عبر نشرات الأخبار، لم يقل لها بعد ذلك ـ الرأس مُهمَل إلى الخلف أمام شق الحائط حيث لحظة الاهتزاز العنيف ثم الانزلاق في نُدرة العذاب..

مازال يصب ألوانه القروية على الخطوط المُفتَرضَة. دائرتان ويقصد عينين. خطان متوازيان ويقصد عنقاً. دائرة كبيرة تلم الدائرتين الصغيرتين ويقصد وجهاً. تنفس على الخشب العتيق الذي مَزَّقته الأرضة. زعانف هي جديلة النزول بسيلان بقعة بيضاء تعني خيط القطن الأبيض. ويبتسم مخافة أن ينساها ويتذكر الأصباغ محاذراً صمتها وشفافية الزجاج فيها بعدما أبصر دمعتين مشنوقتين بالأهداب كصورة العنب في الماء، فأخذ يغني لكي يكسر الصمت كاشفاً لها عن جانب الهرج مخافة أن يصمت فينكشف: حسناً يا عزيزة... تي، من جهتي تنازلت، فمهما تكن قدرتي فلن أرسم مثل الله.. وأنتِ، أنتِ الحلوة، مجرد تخطيط أولي في مشاريعه العظيمة. وتبتسم له ابتسامة باردة وتجيبه بسؤال: هل أسميه عجزاً؟. وينصت للعبارة ثم يعيد فيقفز: لا لا لا، سميه تواضعاً، بل قولي اعترافاً، لا. نكران ذات، ولا حتى هذا. بشيء لا يُسمى، لأنني فهمت من ذلك الذي لا يحس بأنكِ تهزين الحَجَر. وتضحك عزيزة قائلة: هكذا إذن، فلتتعذبا بي، أنتَ وصديقك. فيخلع تعبه: كفى كفى.. آه تعبت سنُكمل غداً فقد اقترب موعد مجيء الوالد.. وأنتِ تعرفين الباقي. تنهض وتتمطى فيقلدها وتقول إنهما سيكملان غداً، ويقول: ربما لا، سأقول لكِ شيئاً بشأن شاهين.. هيا.

ينزلان إلى بساط منشور، حيطان مُظَلّلة وأخرى مضيئة ترفع السقوف تحت السماء وتنفرج ضمن نزول بين التلال كطعنة إلى الأسفل، حيث يسمح للدُريب الصغير بالصعود مروراً بالحقول فالبئر ثم القرية. أما الخارجون من الطعنة لاسيما مع الدم عند الغروب، يتوقعون رؤية الشُباك الكبير الأصفر الخاص بالمرأة عالية، الجميلة ذات الأربعين شتاءً، ولكنهم يُفاجأون أحياناً بحجم الشُباك فيتراهنون عند حلول المناسبات بطريقة لصق الكف؛ بأن هذا الشيء أو ذاك أكبر من شُباك عالية، وهي تستمع كالعادة إلى ربابة البرنامج البدوي منذ عشرين سنة دون أن تفوتها حلقة واحدة، وهذا التاريخ ابتداءً من الحلقة الأولى يشير إلى الصلاة الأولى لمسعود باضطراد مُنتظم نظراً لازدياد معجبيه. ومن هذا المكان أيضاً شاهَدَت ابنها وابنة القطّان فدَفَعَت الزجاج المُتحرك صائحة: هاي، هاي مَلاعين!!. فلم يرتبك لأنه يعرف أمه، ولم يلتفت لأنه سيعرفها أكثر.

ومنذ عشرين سنة فإن زهرة رفسة أخيرة بعد ميلاد عواد، ولكنها قطعة مُحَزَّزَة من القبح بسبب تأثير أوتار الربابة وتقلبات الطقس من حيث الحرارة والرطوبة والأمطار والضغط الجوي، بالكاد تكون ابنة لتلك المليئة بالنشاط: عالية.

يقول الأحياء أن الحياة صعبة. ما أروع أن تكون صعبة!! وهم الأحياء في كل مكان من الكرة الأرضية، يعرفون أسماء بعضهم بعضاً: البشر، الناس، الآخرون. كلهم آخرون بالنسبة لبعضهم. المرء. الإنسان الذي يفتح عينيه صباحاً فلا يجد بخار الشاي فيُصَعّد إيماءاته اللامُجدية مالئاً الفراغ بتنفس مسموع لكي يعترف لنفسه بمُلكية الشهيق. مجرد انطباع سريع عن عالية، لأن المرأة تعني جميع الناس وفق مفهوم الأدب، مفهوم السيد حسن مطلك أو السيد هيرمان هيسة أو غيرهما. وهكذا كان الأمر بالنسبة لها عندما تتعرى لكي تستبدل ملابسها بين ساعة وأخرى واثقة بأن الجدران ليست من الزجاج.

وبين قضبان الشُباك يمشي الرجال العائدون من حُطام مزارع القطن. الأبقار الضمّر تحرك ذيولها لطرد البعوض. ضجة تأديب الأولاد تصدُر عن كل مكان. أقصد؛ كل مكان في الشرق.

كانت تُصغي لوقع خُطى الفلاحين وتُلصق شفتيها على صورهم الصغيرة الماشية بين القضبان، الذين قدِموا من الغبار فيهم رائحة الصوف. تعد أضلاعهم النافرة؛ إثنعَش في كل جهة. نعم إثنَعَش وفق العدّ العراقي رغم الشَعر الكثيف.

ليست الرغبة لأجلها على أي حال، بل لأجل الذين يمنحونها الأبوة بصفة الحماية القاسية فلا تَقوى على قول شيء ولا تعترض. نداء منبثق عن أوتار الربابة. الوتر الوحيد لأنه مجمعة أوتار. نداء شَبَهه الرعاة بنعجة تتبع كبشها. عواد مثلاً: الفرشاة أم والألوان أُسرة، وهذه أيضاً نتائج عدم الكذب. عالية. كانت قد سمعَت عبر أماسي الخريف أغنية مكَرَّرة تُذكرها برجل طاهر لم يُتعب نفسه في عدّ نقاط الوشم على وجهها الذي شبهه الرجال بالقمر. وزهرة تتصرع عند ذِكر الزواج. وعواد أيضاً، بمثابة خشبة الحجز مانعة التسلل لأنه يُفجر الغضب بعد أن يهدأ بغراباته في الشُرفة الحجرية. أشياء كثيرة. أشياء وأشياء لا معنى لها تقريباً. أشياء بلا فائدة كالعُلب والصفائح والأحجار الملونة وعدوى قواقع شاهين لأنه يسعد بقوقعة مثقوبة كما يسعد بامرأة مثقوبة. وهي: عالية. مُفردات قاموس التربية: لا تد...، لا تف...، لا تتـ...، لا تبـ...، لا ولا ولا ولا... إلخ.

شهدته يُكسّر الأواني لحظة الغضب كواحد من الرجال الذين يكسرون أي شيء لحظة الغضب. والرجل شوك جميل لأنه مُخيف.

إنه لأمر مُسلٍ عند هبوط المساءات العالية يشعر الفَرد بالضيق. وهي فَردة لأنها تشعر بالضيق كآخر يوم من أيام العودة. وماذا يفعل المرء بعد أن يُصفي جميع حساباته؟ يُدخن؟ يشرب؟ يذهب إلى الفِراش؟ يغسل يديه بالصابون؟ يخون؟ يتشاجر؟ يتناول الباذنجان على الجريدة؟.. أي شيء يفعل؟. لابد أنه سيُبعثِر حساباته ليعود إلى تصفيتها من جديد.. وهكذا.

لقد حدّدت معرفتها بحدود النقطة الأخيرة لقوة البصر، وأتيح لها أن تفهَم الوجوه المحيطة بعدما تكتسب ندباً أو أخاديد تركها الضحك. سابقاً كان مسعود يحمل وجهاً غير وجهه الحالي وهو

مختلف عن وجوه الآخرين، لأن صلوات آخر الليل تحقن الرضا تحت جلده فتنتفخ الخدوش لتتساوى مع الخد. يصفو ويصفو متجهاً نحو لون الطفولة، لذا فإن الخطر عليه يزداد وفق احتمال اشتهاء النساء عندما يرغبن في تقبيل طفل مرتين أو ثلاث مرات بدون استئذان، وهو يصرخ لا بسبب الضيق بل بفضل الدَلال. أما الآخرون فيُرسّبون الشيخوخة بالكَد؛ انتظار النتائج، أو انتظار التقاعد. عمل النمل الدائب، يأكل في فصلٍ ما ادخره في فصل سابق.. وبعد ذلك؟ تأتي اللحظة الكريهة المُتَوَقعَة: ماذا فعلت؟. أقول: هم، وأعني: عالية. تفتح عينيها في الصباح فتجد أن أعواماً كثيرة مرت مرور الغيوم. أمام المرآة: مازلت. بعيداً عن المرآة: ماذا فعلت؟.

غداً ـ ربما ـ سينطفئ كل شيء وتجد أن تلك الأعوام جديرة بإقامة الصلاة وفق حسابات مسعود.

والتَفَتَت إلى صوت الخُف البسيط يلج العتبة: بسم الله... لستِ صغيرة يا عجوزي، ما الذي تفعلين هناك؟ تتجسسين؟. فتنفُض رأسها مُشيحة عنه: أشعر بالضيق، لكني أرتاح عندما أفعل ذلك. وهو يعرف؛ النظر عبر الشُباك، السجائر الحادة، البرنامج البدوي، تغيير الثياب.

تقول: بعدما أنجزتُ شُغل البيت؛ كنستُ الأرض، طبختُ، غسلتُ المواعين، رتبتُ المكان. وتأتي كل أخبار المنطقة عبر الشُباك. يقف اثنان في الطريق فيقول أحدهما للآخر: "هذا سِر بيننا، والسر إذا تجاوز اثنين افتضح."، فيقول له الآخر: "اطمئن، سِرّك في بئر ."، وتقول: يوه.. ماذا أفعل. انظُر إلى ابنتك فلا تساعدني في أي شيء. لأنها مشغولة بالتطريز وعمل الزهور من أحذية المطاط. فيقول: اتقي الله. وتقول: صارت لدينا أكياس من الأحذية.. أُفّ، رائحة تزكُم الأنف. ويقول: أينَ الولَد؟. فتجيب: لا أدري... أشعر أحياناً بالندم لأننا نعامله هكذا. ابنك لم يُسئ لأحد فلماذا؟. يعني أنه يرسم.. وإذا؟. فيستعيذ بالله لأنه يريد إبعادها عن الشُباك فلا تبتعِد: هـه.. لن ابتعد. ألا تأكل؟. لا يأكل. يذهب إلى الجامع.

مرة أخرى، أقول عالية وأعني الآخرين. ما أن نتخيلها حتى تكون أمامنا كشبح التصويب، وهي تدور في البيت مقطبة الجبين، مُبَعثَرة داخل ردائها الأحمر الواسع كذكرى سفرة سياحية. لابد أنها تُحيّي الناس من وراء الأسلاك فيرد الجميع تحيتها. صباح الخير. صباح الخير. تبرُز فجأة من ركام المعرفة الأولية ضائعة في لجة الترتيب المُزعج. لقد خُلِقَت هكذا لأن أحداً، شخصاً. لا أحد تقريباً. رأى مراحل نموها وهي تدفَع القميص إلى الخارج منذ سن التاسعة فيتَفَتَّق الخيط بسبب حجومها الجديدة حتى لحظات تحية الناس: صباح الخير. كانت تتحدث باستمرار لتجلب إليها الانتباه، وكان صوتها يتلوّن، مطموسة في سعادة لا تعرف مَصدرها. يحدثونها عن بعضهم، أما هي: عالية، فلا تعرف كيف تصِف لأنها تُشاهد فحسب، وتتعرف على الأشياء. تنظر إلى طعنة الدرب. تنظر إلى طرف القرية... وتنظر أيضاً إلى بقعة بصاق السجائر بعد أن تجاوزت الأربعين بيوم واحد فقط، فلا تدري كيف حدث ذلك.

تعود إلى شُباكها فتَرى النحيف القادم، ملتصقة أكثر لتَتَعرف عليه، فلا تتعرف. قادم إليها مباشرة. يراها ولا يُبصرها عندما تُشير. ليست ثمة تحية خاصة بانتصاف النهار؛ ظُهر الخير؟. مَن ذا الذي يطلع غريباً عبر الطعنة كأنه يعرفها ولا يعرفها.. فتحاول أن تبتسم للشبح. قد لا تستطيع.. تبتسم. رجلٌ من الغجر يدور حول البيت ويعرف المدخل.. مَن؟. وبعد لحظة، تقول زهرة: هذا شاهين. يدخُل الفناء المُعَبَّد بإسفلت لأجل طُهر الوضوء. وتتساءل عالية: شاهين؟ مَن شاهين؟.. آه.. شاهين!!.

فقامت إليه وقَبّلته. رأى في طرف عينها البياض الهائل المحيط بالعدسة؛ بياضاً ذهبياً مُشعاً. تنحني بوداعة لتُقربه أكثر، فيمتد بصره عبر الشُباك إلى الأرض الرخوة الخالية؛ إلى السَراب، حيث يأتي خَطر معيّن شبيه بالحصار تقريباً، غير أنه ليس حصاراً، ولا حتى خَطراً..

ورأى أيضاً، بعد قُبلتين وثلاث انحناءات، أنها مدفوعة بسحر أساطير ذاتيّة إلى التأويلات لفرض حماية نفسها. كل فَرد هنا بما فيهم زهرة، مدفوع بسحر غريب، تقريباً، كالقَدَر الذي لا

محيد عنه. أراد أن يَلبَس الباب لأنه لا يعرف كيف وأين يجب أن يجلس، فتَمَسَّكَت به وأوصت زهرة بإعداد الشاي.
بصره يدور حول عالية، ولا يسقط عليها. يرتفع أحياناً بين هندسة الوسائد حتى الإعلان السياحي؛ صورة اللبوة الجريحة. يقول لنفسه كلمة وهو يطيل التحديق في جَلستها المُلتاعة؛ وضْع الابتهال والنجدة عبر العصور. يمكنه أن يفسر بلا معرفة وبلا أي شعور بنقصان الألم. لأن الإنسان الأقدم كان ينقصه التعبير عن الألم. يضيق بتوسلها فلا يجد مهرباً. الإنسان الذي يُقدس صورة تعلو على تَوَحّل الحظ؛ في قائمتيها الأماميتين. ولكن آخرها قد سقط مثل كرسي مُحَطَّم. فكها الهلالي. الجوف المُلتصق بالجلد. مخالبها التي أهملت كخطوط في رقيم طينيّ لكي تُخلّد لحظة الاحتضار، كأنها كانت تنتظر المصور أن يُتِم نقشها.
تتحامل وتتساند قبل أن تَسقط بمستوى الأرض وتستسلم لذباب التفسُخ. إنه يَسمع نجدتها القادمة من قعر العصور حتى ساعة القيامة. صرخةٌ مُلتاعة صادرة عن أسفل القصبة الهوائية.. وقد صارت السِهام عزيزة عليها..
تقول إنها صورة آثار وتُقبّله مرة ثالثة. فيقول: نعم صورة آثار. ويفكر أنه لم يحظ بشفطة خَد. لم يتذكر أن أحداً شَفَط خده وأحس هكذا بطعم الصوف. طعم بلا معنى تقريباً.
لحظات طويلة أخرى. يَرفع بصره حيث جروح اللبوة مستتكراً ومعتذراً بشكل أسَف. كانت عالية تحكي. يدري أنها تحكي، فلا يَسمع سوى الكلمات المُرفقَة بلكزَة الخاصِرة. ولماذا تغيب يا بني؟ فأنت ترى أن عواداً يحتاج إلى صديق لكي يهدأ. وتقول: إننا بحاجة إليك.. يا وديعاً. انظري إليه يا زهرة، أليس وديعاً ككبش، نحيف بفعل الفيء... ولا يهم. ويدري أنها تحكي. تقول: لو أنك تزوجت.. لماذا لا تتزوج؟. ضعي بعض القِرفة في الشاي. ويجيبها بـ آه طويلة.
تقول: لماذا الآه.. اقترب يا حبيبي، لماذا لا تقترب يا بني؟ لماذا لا تأتي وتُسلي عَمتك..؟. غير أنه يبتعد وعيناه معلقتان في جروح اللبوة، فيقول: الشاي. وتقول: حالاً، الشاي يا زهرة... يوه هل رجعتِ إلى ورود المطاط؟.
جاءت تلك البُقعة وأخذته قبل أن يشرب الشاي، وهي مشدودة بخيط القطن اليومي. مشدودة ومُزَعنَفَة تقريباً. وتقول إنها تبحث عن عواد لأمر هام يحدث بين العوائل. تلك النادرة، فكيف يمتنع بعدما انحدرَت به عبر طعنة المضيق إلى النهر.
كان يُنصت إلى حفيف ثوبها. صوت زحوف في الظلام. فيضغط لكي يظل مرتفِعاً عن الانفعال الأول، خائفاً التجارب التي لا تأتي بعد المغامرة. ولكنها مجازفة؛ إحراج مُعَزَّز بسطوع الشمس الهاوية نحو الغروب. وهي موجودة بجواره، يكاد يلمسها كملِكة من ملكات الجن، بقدر الضعف أو الانكسار من أن شيئاً ما يموت فيه عند حضور الآخرين.
استطاعت معرفة الشحوب في وجهه وألغت بنظرة واحدة تَرَف الفراغ لتضعه في التجربة مباشرة وتَصُب عليه حامض العاطفة ثم تدعوه للنهوض بمستواها منذ اللحظة الأولى حيث عَرَف أهمية صياح الديَكَة وتأملات منتصف الليل، كذلك الإبهام العميق في صوت الساعة قبل الفجر، أهمية الأشجار والوادي وحصى النهر البليل بزيت الرخويات. وكان لابد من تبادل الريب بالإشارات لفرز الروابط المؤقتة والدائمية. وكانت الضربة الواحدة تؤلمه وفق إشارات أخرى لتبادل الاتهام، ولكنها تكنس عنه متاعب الليل وتهزه كورقة عشب لتُدني الطيران منه بعد أن اكتشف مبدأ الضحك واحتفظ بسِر الاكتشاف لنفسه.
أما الشجاعة؛ شجاعته وهو يعقد ساقيّه بساقيّها فوق السواقي، تلك اللغة السِريّة التي تطفو على لسانه. ولكنها تطفو كما كان يعتقد عقب المصافحة الأولى. هكذا.. لمس الانفصال الممكن للروح. حقيقة لمس هذا.. وهذا انتفاض الزاوية أمام تلك البقعة المشدودة بخيط القطن اليومي. يقول: عزيزة، ويعني التي تُسليه بعِراك أجزائها أثناء المشي حتى يصلا إلى صوف الغَرَب المنفوض، وهناك سيجد الحصى؛ حصاة تَرُص حصاة تَرُص حصاة تَرُص حصاة... إلى ما لانهاية، فلا يجرُؤ على إغماض عينيه لئلا يَسمَع دويّ العالم.

وتَركض بمهل لتلحق الموجة. موجة من بين الأمواج. تغرس قدميها في معجون الرمل ثم في الماء البارد وتقول: هل جَرَّبتَ لذة مياه النهر؟ هيا افعل مثلي. ويفعل مثلها، فتقول: بماذا تحس؟. ويضحك بلا معنى مجيباً: أُحس أن قدميّ في ماء النهر. وتضحك أيضاً لأنها تتذكر، ربما، حكاية قديمة منسية، مجيء طفل في سَلّة طافية. أما بالنسبة له فقد أعطى المشهد اسماً من أسماء الامتحان، وهو يثق بقدرتها على منعه من الانسحاب.. حتى مجيء الشتاء الذي سيكون أكثر ضباباً وخِفة في القفز... يظل يحوم حول تلك العصا. ما من أحد يبتعد عن الطفولة مسافة خطوة، يحوم حول تلك العصا، لحظة النهر الأحمر وحجوم البط القديم، أسراب وراء أسراب تكتب أرقاماً في الهواء. تُجزؤ الهواء بنشاط أجنحتها وتعبر إلى صحاري آسيا.. ويذكُر أنه جاء مرة إلى هنا إلى الحصى المثقوب، " ولكن حذار.. يجب أن تبول على الحصاة قبل أن تأخذها...".

كانت تتكمش وتتبسط آتية من جاوة، من سومطرة، من جزر القمر، وتحوّم حول تلك العصا الصغيرة وتقول: بماذا تحس؟. ويذكُر أن أباه اصطحبه مرة واحدة فقط إلى هذا المكان في إحدى رحلات صيد البط، فنظر مباشرة إلى النهر كله وليس إلى جزء منه بالتحديد. وعندما كانت تعبر تلك الأسراب السوداء إلى صحاري آسيا، يقول له: " مازلتَ صغيراً يا ولدي، قد تحتاج إلى عمر آخر لتعرف متى يجب أن تضغَط على الزناد". فيُصر على تعلم هواية الأب ويقعد ممتنعاً عن إكمال الرحلة، لكنه يتشبث بتلك اليد الضخمة، ويأتيه صوت مرتفع، يَتَسَكَّب ذلك الصوت من السماء الداخلية: " زَعلتَ يا ابن أُمك؟ خُذ أطلِق. أقتل البط كله ". فيُطلِق ولا يُصيب لأن البط لن ينتظر طَلقَة أخرى. " أرأيت؟". يقول: " أنتَ الذي تمنعني ". فيستفسر الصياد: " كيف أمنعك؟ هل أمسكتُ يديك؟". " ولكنك تخجلني".

" جَرِّب. خُذ جَرِّب مرة أخرى.. ها، لن أتكلم.". " لقد طار البط يا أبي". " انظُر بمحاذاة الشاطئ، فإن وجدتَ بطة ميتة فأطلق عليها.. ها ها." ها ها ها هئ. تقول: لمَ تضحك يا شاهين؟. فيقول: لمَ أضحك يا عزيزة؟ لا شيء، فقط إنه البط الميّت. ثم ينظر إليها بإنكار، ثم إلى سُحُب العصافير ـ في صحاري آسيا ـ تلك الهابطة نحو أشجار جُزُر النهر: امرأة أمام النحاس. امرأة أمام الفراغ كصورة من صُوَر عواد. يحوّم حول تلك العصا ويمد ذراعه عِبر الهواء الفاصل بينهما؛ ذلك البهاء والرضى، يتلمسه لكي يتأكد أنه حقيقة واقعة في البرودة.. وينغمس: بريق العينين وبريق الماء. ما مِن أحد يبتعد مسافة خطوة لحظة النهر الأحمر وحجوم البط القديم فلا يدري ما جدوى التصديق. حقيقة: ما جدوى التصديق؟. ألم تقع تقريباً؟. صورة مُثبَّتة في فراغ العزلة.. أما الآن؛ يمد يديه ليلمس الأنثى فيُصاب بالدوار. وتُبدل الصورة لونها ثم تتحول إلى مجرد شكل. ورغم ذلك، يحوم حول العصا الصغيرة بعدَ نوبَة الغاشية. يستطيع شم رائحة الإبط والشَعر، ذلك البهاء المحقون تحت الجلد وفي بريق العينين والسحنة النحاسية الرطبة. يود لو يسمع رَقّات قلبها تحت طراوة النهد الأيسر، وهي تعضّ شفتها السفلى، في الأصل: تعضّ بكاءه الداخلي، فيقول: فيما مضى كان اسمها عزيزة، أما الآن فإن اسمها عزيزة. عاصفة في الرأس أو خَدَر في المفاصل. تقريباً، سقوط في زيت كثيف ويتلاشى كل شيء خارج حدود إضمامة العين، فيحتقن الجلد مرة أخرى بلون السطح الجَعِد المصبوغ بنحاس الشفق، فلا حاجة للتفسير ثمة. يريد أن يقول شيئاً، يفتح فمه... لا جدوى. يحدق في ذلك النزول الجميل لطرفيها المتباعدين وموازاة الحاجبين لحظة الاستفهام، ثم يهتز برؤيتها كاملة أمام الفراغ.

جعلته هذه الأشياء خائفاً. يريد أن يَهرب، ويقول: تمسّكي بي حتى لا أهرُب. وتتمسك به حتى لا يهرب متوسّلة. مع ذلك فإن اصطدامه بصوتٍ بشري لم ينقذه من بقعته السوداء فيقول: تمسكي أكثر. وتمسح عنه الإغماءة بابتسامة مُدبّبَة وتقول: هناك، عند كثافة الأشجار، تلك الأغصان المغموسة في الموج، سنجد قارب العَم عارف، ونذهب في نُزهة صغيرة. ويجيب: هناك الأغصان المغموسة في قارب العم، لن أذهب إلى نزهة صغيرة لأنني لا أحب النزهة الصغيرة ولم أركب قارباً صغيراً من قبل. تقول: بل سَنَركَب القارب، يجب أن تتعلم مثلنا بحيث تستطيع الذهاب منفرداً. ويحوم حول نفسه قائلاً: لن أركب القارب وأتعلم منفرداً مثلكم. وتصرخ به: بل ستَركَب

مُرغَماً. فيجيب بهدوء أكثر: بل سأركب مُرغماً، نعم. وتمشي أمامه عارية القدمين على معجون الرمل، فلم ينزَع خُفيه كما فعلت بل تركهما يرشانه بالرمل.
وتنحني عند الأغصان المغموسة فيبين القارب، يتفحصه: عمودان، شبكة صيد، جفنة إسفلتية، وتد وحَبل، كيس فيه شيء. وتقول: اصعَد. بعدما تفك العُقدة. فيقول: سأصعد، ولكن إلى أين؟. تقول: إلى النهر. ويقول: هذا هو النهر، فلماذا نذهب إليه؟. وتضحك، ويضحك أيضاً، ثم تَركَب أولاً وتتناول يده وتستعمله فيتأرجح بعد أن ينقل قدمه إلى الجوف ويغمض عينيه ويُوتِّر ظَهره فتأمره بالارتخاء.
كان النهر أملس مغطى بعيدان الطفو على جانبي القارب، وأسراب أسماك صغيرة فضيّة تهاجم الخشب ـ بعدما فتح عينيه يبصر عموداً في حركة غطس وارتفاع فيتبين أنه مجذاف، ويبصر الشاطئ مبتعداً بخطوة عملاق، والقارب يندفع أكثر، على مهل أحياناً نحو زعانف الأسماك الكبيرة التي لا تُجيد السباحة في الشاطئ. ينساب في نشاط حركة الأمواج.. على مهل. تيار صنعَته حدبة صخور نحو حدبة صخور أخرى. وتنغلق الرؤية في ظل الجبل أمام مهبط الشمس فوق أوراق الأشجار الدائمة الخضرة فلا يبقى سوى التيار السعيد المُجَعَّد مُعلَّقاً في الأفق بمستوى أهداب التي ارتعشَت لتنفض لذة النعاس. في الأصل: انتفاض العصفور لحظة الزواج. وتُطلِق صوتها في أغنية تتحدث عن معنى الحياكة فلا تلوث انتظام حركة المجذافين. يدخل الماء عبر ثقب سِريّ إلى الكيس الذي فيه شيء. ويقترب الخطر بدنو القارب من الصخرة الكبيرة ثم يحيد قليلاً إلى الشرق فلا تقطَع أغنيتها لأنها لم تُرخ يديها على العمودين.
تأمره أن يغترف الماء بجفنة الإسفلت فيفعل بحذر أولاً ثم يتعلم.
تقول: إن الأمر صار مُسلياً. وكانت هي أيضاً؛ عزيزة القطان تأمر بأن يتسلى لكي تتسلى أيضاً، بعدما ابتعدا عن خط الخطر.
يعتقد أنه أبصر دبيباً على الصخرة. أجل، دبيباً على الصخرة، عندما انشَغَلت بإدارة القارب حولها في طريق الرجوع نحو الأغصان المغموسة...
لامسَ خشب القارب أعشاب النهر؛ الرؤوس فقط. جوف في مساحة ضائعة مدفوع بقوة رقة الأمواج المتتابعة المتساوية المنحنية على بعضها بعطف. أخوّة الأمواج. حنان يحضن حناناً. أم ترضع أماً. وتقول له: اقفز. ثم تعقد الحبل حول الشجرة. تركض في معجون الرمل ثم تُسقِط نفسها ناظرة إلى بعض غيوم الخريف الذاوية.
يقول: أعتقد أنني رأيت... ثم يجلس أمام زفيرها، تقول: نعم، إنه نمل أسود يعيش هناك. يقول: نعم، نمل أسود يعيش هناك، فماذا يأكل وسط النهر؟. تقول: ألا تعرف؟ يأكل أي شيء؛ الحَبَّ أو السُكّر، مثلما تأكل أية نملة. يقول: آه.. يأكل مثلما تأكل أية نملة الحَبّ أو السُكّر، أعرف، ولكن من أين؟ أعني، من أين تأكل؟. فتشير إلى السماء: من هناك يأتي طعام النمل.. وطعام البشر.
ويحوم حول تلك العصا. ما من أحد يبتعد عن نفسه لحظة النهر الأحمر؛ أسراب وراء أسراب تكتُب أرقاماً في الهواء، تُجزئ الهواء بأجنحتها وتعبر إلى صحاري آسيا حيث خط الاستواء الشمالي، والزنوج على الصخرة عِبر نشرات الأخبار: الإرهاب العالمي، وليس الحُب العالمي. أخبار مجاعة النمل. شاهين ـ شاهين ابن الصياد ـ ابن الظهيرة القائظة ـ ابن قارب الخشب ـ ابن حصى النهر البليل بزيت الرخويات ـ ابن الخريف حيث شُباك الضحك. حتى؟. تقول إنها تعرفه بفضل صخرة النمل ـ ابن العاطفة الأولى حتى آدم ابن حواء. وتقول إنها تدري أن صخرة النمل واحدة من معجزاته عندما تشير إلى الأزرق المرتفع فوق مياه النهر أحياناً، فلا يعلم ماذا يحصل حين يمر الصيادون ويثيرون السؤال نفسه: ماذا يأكل النمل؟ ثم يُلقون بعض الشعير. أتدري ماذا يحصل؟. يقول: نعم، أدري ماذا يحصل، سيفرح النمل بالشعير. وتزجره: كلا لن يفرح النمل، ولكن الزورق ينقلب. فيضحك متذكراً أنه قرأ عبارة على باب حمّام: " لماذا تكتبون هذه السخافات؟". فتقول: ماذا تعني بالسخافات؟. فيقول: لا شيء، لا أدري...

استوَت تنفض حبات الرمل عن شَعرها وتُسوّي الخيط القطني الغليظ، ثم سارت أمامه على حافات جُروف رملية أمسَكَتها جذور الطَرفَة عن السقوط. وما من أحد يبتعد عن الطفولة مسافة خطوة. رأسه على فخذ هاجر بدعوى البحث عن القمل وهي تعلم أن شَعره مُعَطّر بالصابون. لم يكن يفهم معنى القمل عندما غاصت أذنه في الدفء وأراد أن يغفو حتى ينتهي عوض القصاب من سلخ الذبيحة. يقول لها أنه يريد الدفء بسبب القمل. لكن الأصابع الرشيقة تفرك شَعره فتصدر عنها رائحة السُوس.. آه، السُوس!! ـ السُوس أيضاً حول العصا، أسفل بطن البقرة المذبوحة؛ بيضاء حارّة تنبض تحت السكين. دم أحمر يسيل ثم ينجمد. وإن شيئاً ما، أسفل البطن تقريباً؛ دفء البقرة تحت قلائد القرنفل بالضبط حيث تنتظر الفتاة في آخر الطابور سقوط اللحم في صحنها وتشكو من قصر جدائلها بعدما سمعَت وصية عجوز، بأن صَفار البيض مع الروث يمكن أن يطيل الشَعر. كان فخذها يتنفس تحت أذنه. فخذ البقرة. فخذ عزيزة. فخذ هاجر.. بينما القصاب يضحك ويحك مديته على اللحم الحار ويتأكد أحياناً من خيط سرواله بحجة إراحة ساقيه من تعب القُرفصاء. فتاة أخرى تدفن شَعرها تحت منديل أسود وتتجنب مخاط الصبي المجاور عندما يعطس. وحين اشتد القيظ، بحلول المساء، قال: لديّ في شق الجُرف، تدرين؟ إن طائر الشقراق من أحسن الطيور لأنه يضع بيضتين في ظِل حفرة، ويخاف عندما أنظر إلى عشه، أعني أنظر إلى عشي، من خلال الحَطَب...

مشَت باتجاه انفساح الممر الرملي. ثمة طين جاف مُشَقّق، أشواك وآثار مخالب لثعالب عبَرَت في الليل.

فكَّر، وعيناه مشدودتان في تضاؤل الضوء، بأنها تعرف كل شيء عن المكان. واعتقدَت بأنه سيُحدثها عن شعوره بالتفاهة وأفضليّة الموت، وأنه يُفكر جاداً بقطع التنفس. فأخذَت تعصر نفسها طوال طريق العودة لكي تفلح في اسقائه قناعة الرضا وتناضِل لتحويل عناصر التعب إلى بريق...

حسب فهمها: ربما صار مقتنعاً بقولها، ولكنه لا يفهم معنى أن يتعلم المرء شيئاً من رحلة القارب، ووصل حماسها إلى درجة الضحك من طيران القُبَّرة وثقوب الجرذان في السواقي. وبدا لها بأنه على وشك، ربما في رحلة أخرى، أن يُغيّر نظرته السوداء إلى نفسه كخطوة أولى لإزالة موانع الحَذَر بينهما. لكنه اكتفى بالإنصات إلى حفيف ثوبها كدبيب في الظلمة، ويجيبها أحياناً إجابات بعيدة عن السؤال... فسارت بيأس، إذ لم يكن الكلام مهماً بعد ذلك..

تقول: فهمت. ثم تنفجر ببكاء مُرّ مُديرَة وجهها نحو آخر دفقة من النور، فرأى دمعتها الصافية لذيذة لأنه أحس بندى الأعشاب التي نبتت في الربيع الماضي بين شقوق حافة النافذة. وأراد أن يقول: لا تبكِ أحسن. لكنها لم تنتظر منه قولاً، فدفنت وجهها بكفيها وهروَلَت صعوداً على التل ثم بدأت بالنزول من الجهة الأخرى، خطوات الانكسار بعد الهجران الأول. خطوات. خطوات. تصعد شتائم الغروب إلى سّحب الشفق كالتفريغ بعد امتلاء، فيما يرى الحالم أنه مجرد قِشر رقيق مُعَلّق في غرفة خياطة؛ بمعنى أنه معرض لطريق الإبرة، يتنسم غلظة هواء الخريف، بارد ومُفَخَّخ باعترافات سطوة الفراغ.

خطوات أخرى. يرى أنه يقترب من الغطس ثانية، وينظر وجهاً في الظِل فيقول: من أنت؟. يقول الوجه: أنا أمك هاجر، خِفتُ عليك، انتظرتك، أين كنت؟. فيجيب: كنت في الماء ثم خرجت إلى اليابسة. ويُحدق الوجه الذي في الظِل بحنان يفوق الحِكمة. ربما بإشفاق يفوق نفاد الصبر. وجه ذو تجاعيد، تجيب صورته عن عدد العقارب التي لدغته، ويترقرق فيه ماء الساقية المالح. تظهر أسنان نخرها النيكوتين دافعة لمسافة هلاك نفس الجوف العنبري. في الظِل أيضاً أصابع صريحة تشير إلى كف عازف منسيّ، تغطي الجزء الأسفل؛ جزء طفلة متغوّطة تلحس تراب الأساس.

خطوات الانكسار بعد الهجران الأول. خطوات أخرى. يسقط التآلف مع المحيط صعوداً حتى الشُبّاك مروراً بلفظ إذاعات لحظة هبوط المساء الكثيف في أواني الطبخ وحدوث زلازل تشيلي

عبر رغوة الصابون تحت باب الخشب انتهاءً بخروف يمص الضرع بيد المرأة التي ليست مرأة وإنما دبابيس تِبن دَخَلَت الجلد..
يصعَد بعدما صار خواء. صار شيئاً، مجرد شيء. خواء يمشي إلى خواء فيتسلل خَدَر التجربة في الباقي ويمتص الوحدات والكلمات والشرطة على خشب البيك أب وأحشاء ثور طُبِخَت بمحتوياتها وغصّة حنجرة مخدوشة بشفرة الحلاقة وبراءة من أصابع القدم ونظرات بُوميّة بعد كل هذا، فهو سعيد حتى لحظة: " فهمت " ثم انفجرَت ببكاء مُرّ مديرة وجهها نحو آخر دفقة من النور.
وجد في ثقوب العصافير، تحت السقف القصبي لبيتهم المستعد دوماً للنصر على العواصف، بعض الأمل في أن يكون مرناً، خشبي الساقين على ظَهر ـ جوف القارب، رغم أنه استمر في التأمل أكثر من عشرين خريفاً ليجد الفكرة، ولعله يجدها بعدما يتحوّل العصفور إلى ببغاء، والسمَكَة إلى ضفدعة، ويطول عمره لكي يتمكن من التجذيف منفرداً فيعلن اكتشاف مبدأ الضحك وسط ساحة مُسَوَّرَة بالعيون والأكُف المُصَفّقة.
الضحك دائماً. الضحك. الضحك. الضحك، إلى ما لانهاية... كان عواد يُدلي رأسه من الحائط حين توجهت إليه. وقد فكر بظهور شاهين كضرورة مجردة عن أهمية الهدف، وقد جمعهما اللعب عند السدرة في رصيد من التجارب الحدسية. أعني: الاستنشاق والدغدغة. أعني: غباء الآمال ورشوة الحلم بالوقوف على الأحجار. أعني: خدعة الطول. وكانت ارتفاعات جُروف السيل بمثابة المُنجِد من الظهيرات القائظة، لأن ظِل الحمار لا يسع اثنين بسبب تقافز الجَراد الذي ينقله إلى وضع مواجه للريح لتخفيف مشَقة تحريك الذيل؛ فهو من القصر بحيث لا يصل الرقبة، كما أنه يريد الفيء لرأسه المدبب كما يُريدان. ومخافة الضواري اللائذة: واحدة لها بُوز مستطيل. يرتفع الاستنشاق تحت وطأة الحذر، إنها رائحة شاهين، كانت شبيهة برائحة المطر بعد القحط. أو رائحة التمر المدبوغ، أو نحو هذا الحجم بالنسبة إلى ارتفاع الجُروف.
ورغم الفارزة الوقتية الكبيرة بين سحر الجروف وبداية الظهور بعد الغطسة، فإن رائحة المطر بعد القحط تقريباً، رائحته بعد تبدّل الساعات العادية بأخرى إلكترونية، كما هي وهو لا يشعر بحاجة إلى سؤال عادي: ماذا فعلتَ طوال هذه المدة؟. لأن ذلك سينكشف في ليونة تحمل الهزء والإحساس الشبيه بالمرض لدى كل منهما.
ومهما كانت الوسائل ـ حسب اعتقادي ـ فإن شاهيناً دخَل إليه زائراً ليخرُج صديقاً في صورة إعلان أمام الناس لأنه بحاجة إلى نصر الاكتشاف أو خبرة الفشل.
كان الظلام يترسب تباعاً في المنخفَضات عندما يُدلي رأسه ويراقب أنحاء الطريق معاهداً نفسه على إفشال التخمينات؛ بأن العلاقة ستنتهي بفاجعة الإشباع أو اللاتفاهُم. فلطالما أهدى إليه الصفعات بعد خلاف حول الأقوى؛ الذئب أم الضبع؟ ثم يعودان في اليوم التالي إلى القرار بأنهما متعادلان في القوة، فلو كان العكس لاختفى أحد الصنفين؛ إما الذئب أو الضبع.
يقول: كانت صغيرة، أما الآن...؟. يقول: كانت صغيرة فذهبت. وهم يقولون: العلاقة على وشك النهاية. لكنه يقول بأنه على وشك الإمساك بالسِر الذي يأتي بسرعة ثم يقفز إلى الهاوية، ليس على طرف اللسان فحسب، وإنما في جرَس القلب تقريباً. استنتاج ما، بأن الدوام يأتي من الكشف المستمر دون حاجة للحديث عن العمق أو السطح.. إلا أنه سيحتاج إلى جهد كبير لمعرفة شاهين، ولا يحتاج لبعض هذا الجهد لمعرفة عزيزة، لذلك سيراه من خلالها في الممرات نفسها. ربما، سيدفعه الحُب إلى اختيار مكان خاص لكي يعلن عن اكتشافاته: التفحص على عجل لا يحتاج للدقة في فرز الفواكه الفاسدة أو النقاش حول إمكانية إنبات النخيل ـ أعني نخيل الجنوب العراقي ـ في الحائط.
أقول: ربما. وكلمة (ربما) أدق الكلمات تعبيراً عن الاحتمال. إلا أن السِر الذي تَعَلّمَه عن الصبر أثناء دراسة تشريح الثيران أو مراقبة مواسم الحصاد التي تُغذي العاطفة: البِذار المُسمى بتعب البداية ـــ النوم المُسمى بانتظار الرزق ـــ الحصاد أو نتيجة الصبر على الانتظار. وربما تأتي السنابل سوداء بفضل الزوان، مع ذلك فإن الجميع يستعدون للبذار القادم لئلا يشعروا بضياع

الجهود. ومع ذلك، ربما، سيعتذرون للمحراث، بأنهم تعلموا فنون الزرع.. على الأقل. يحك ذقنه بسبب البعوض ويرى الهبوط بعد رحلتها معه. ها هي، تبدو كعلامة في الظلمة. يسميها الحواجز النافعة، كالآثار المهَدَّمة النافعة. لعلها ستزداد سُمكاً بعد نيّة الإشارة في طلب الاعتراف. أقصد سُمك الحواجز، لا سُمك عزيزة. لذا لم يعد ذكر أنها قالت له مرة إنها مرتبطة بصاحب النظارة السوداء. شخص قريب. علاقة شُبه رسمية. غير أن ذلك الشخص كان دنيئاً بالقياس إليه كفنان.

تقول: مرحباً.. صديقي العزيز. لأنها فهمت نواياه رغم السواد. ويقول: مرحباً. فقط، لأنه فهم أيضاً. ويا له من صعب ولكنه مستعد.. هذا هو المهم. يعرف أن صديقه صعب، ليس هذا هو المهم، بل: مرحباً. كذلك: هذه أنفاس الصعود.. ما أطيب الصعود وأنتِ ترين الظلام قبل القمر، اللعنة على البعوض.. أُف. ثم يدخُل في محاسبة شديدة لانتزاع اعترافها كما وعد نفسه.

واعترفَت له، بحذر، بأنها لم تصل بعد إلى حد النطق بـ: "أُحبك " دون الحاجة للمقدمات. وأن علاقتهما وصلت أقصى درجات الصداقة. ومَن يدري ماذا سيكون بعد الدرجة القصوى؟. ثم اعترف لها بمعاناته تجاهها وتجاه نفسه.. وأخيراً تجاه الجديد شاهين.

تطلُب الإذن بالانصراف بعد وداع بارد، بلمسة كف باردة من فوق الحائط. سنلتقي غداً. إنشاء الله... ويعود إلى مشغله متلمساً طريقه بين الأخشاب حينما بدأ عمل الأرضة على ارتفاع خمسة أمتار فوق النهر البعيد. يحك ذاكرته فتعمل بشكل مُدمر واضعة احتمالات القصاص قبل هذه اللحظة. غير أن الاحتمالات كانت أشد وطأة مما توقَّع، بفضل الثقة الزائدة التي أجازها لنفسه لحظات الوقوف أمام اللوحة، مُدعياً، بفعل تأثيرها، بأنه قادر على صناعة المرأة كما يفهَم المدرسة الانطباعية. هذه رغبته تقريباً، لأنه يرى الشجرة بيضاء على خلاف رؤية الناس. أقول: إنه تعلَّم من المذابح الزرقاء الخاصة بالسيد الأجنبي؛ هنري روسو. تلك التي تمد الأشياء إلى جوانب الفراغ بحيث تجعل الموت لعبة سحرية وتُعطي الحياة للجمادات. أعني: صورة الغجرية النائمة تحت القمر أو تحت لحية الأسد بلا أي خوف. منظر شبيه بمناظر الاختناق.

من جانبه، حاول اعتبار تصريحها مجرد تبرير لكي تُمَتِّن علاقتها مع صاحب النظارة السوداء الذي يضرب رأسه بالحائط حين يكتشف أنها وقفت مع غيره وتحدثا طويلاً عن تكاثر دودة القزّ.

وبدأ الألم منها. من عزيزة. لا بديل عن المرأة الشيطانة، الضحكة النادرة، البياض الهلالي في العينين، الالتفاتة الذكية لأنثى الرجل تلك. قالت: " لكَ عالَم خاص... أما أنا فلا أستطيع."، عندما كان يبني أحلامه على أمل وجود امرأة تضَع العاطفة فوق واجبات المطبخ وتقول مباشرة إنها عاجزة عن فهم جُمَل ما بعد التأمل بمعزل عن الحس، وقد عَبَّرَت له مرات عديدة، كفرصة للانتباه، عن تعبها في محاولات بلوغ الأطراف الدنيا لحلمه. مرة من خلال هدية تُمثل تقويماً مُزيّناً برسوم عصر النهضة، حيث كَتَبَت بعد يومين من التفكير باختيار العبارة المناسبة: " إلى أعظم رجل عرفته في حياتي و..." وتحت تأثير العجز نفسه، والبراءة الخبيثة ذاتها أكملت جُملتها: ".. وأعز صديق.". وأعز صديق. وأعز صديق... إلخ..

خرجَ إلى الظلمة ليرى نفسه بوضوح.

فكر شاهين بالانصراف إلى الشاي لكي يلعب لعبة التوازن، فقابله شخص في الشُباك عبر الزقاق. ربما شاهده معهم هناك كلما التجأ إلى المسند. وجه ذلك الرجل.. هناك، يحمل بقعة حمراء بحيث لا يستطيع الصبر على المكوث في مكانه فينتقل إلى الزاوية ليتخيّل الشخص.. فأين الآخرون؟ هناك فقط. لا في مكان آخر، مقاعدهم البيضاء ذات المساند العالية التي تسبب له الضيق بخلوّها منهم. أين هُم؟.

يمد ذراعيه. ما أروع أن يمد المرء ذراعيه!!. يمدهما إلى الجانبين، إلى الأعلى، إلى أي اتجاه آخر.. ما أروع ذلك!!. يمدهما فلا تصطدمان بشيء. بدون أمر ولا طَلَب ولا رجاء.. ولا حتى تجسس. ولكنه يشعر بالحذر تقريباً. لا شيء مؤكَّد، لا شيء...

يشعر بحرية الفراغ عندما يَقطع مسافة معيّنة بين النافذة والزاوية، أو بالعكس. يُدلي رأسه بعد اختفاء الشخص ذي البقعة الحمراء. تتشكل زوايا الأشياء كسهام تتجه إليه تقريباً فيَرى خطوات

الناس الراغبين، بمحاذاة مجرى الزُقاق، بالوصول إلى بيوتهم. يراهم بلا نزاهة معروفة يحملون لأولادهم عشاء الليلة الماضية، فيذكر تلك الجُملة؛ صيحة بلا صوت. جُملة قديمة: " كلهم وسخون.. حتى أنا وأنت.". ويجلس ماداً ذراعيه، ما أروع ذلك!!. ويُحرّض نفسه على قبول فكرة المرض. غير أنه استيقظ نهائياً مُعيداً إلى نفسه كلمات الأغنية التي تحدثت عن الحياكة. وقائع رحلة القارب مرة أخرى. صور واضحة. يشعر بأنه على وشك الانفعال، مُندهشاً تجاه قُدرته الجديدة في قول الكلمات التي أراد أن يقولها لعزيزة، فلم يستطع. واعتقَدَ أن استمرار هذا الوضع كفيل بإحداث بعض التبدّل في حياته.

يُطبق فتحتيّ الإبصار فتأتيه الصور قريبة ملوَّنة طافية فوق مياه تنزل من السماء. يهز البرميل الذي يستخدمه كمقعد، في وضع الابتسام، فيرى أنه، ربما، سيموت غداً... ...

يفتح عينيه؛ صورته الكابية في الزجاج، وهو يسمع أصواتاً خاصة به: موت فأر تحت القَدَم، محادثات بين طابوقتين، شكوى أرجُل الطاولات بسبب تعب الوقوف والرفع، تنفُّس تروس الساعة، أصوات لا مكان لها ولا أصل... أصوات.. أحد...

يُدلي مرة أخرى؛ ثمة هاوية باتجاه القاع تقريباً. ليس ثمة هاوية باتجاه أي شيء. يرى أنه سينطفئ. ينطفئ. ظلمة كثيفة دَبِقَة. ظلمة دبقة..

نظرة إلى الأعلى؛ تبتعد السماء مثل فقاعة سوداء، وتخرُج رائحة الوبَر من حيوانات الوادي. يفكر بأن الرجل ذا البقعة الحمراء قد نزل بحرص درجات السلّم بحيث لم يستطع رؤية أقدامه.. وسمعَ صوت سقوطه في مكان ما...

ظلّ على حافة الشبُاك. أقصد: حافة الكرة الأرضية. يُسنِد خديه بيديه وينظر صورته الكابية بحياد تام. يشعر بأنه لا يرغب بالخلود، إذا كان ثمة خلود في ذلك الفراغ، حيث رأى انتهاء الفصول دون أن يتعلم كيف يكوّر طينة ليشتق منها بَدن عصفور. ولم يفهم عناصر حَجر ساكن، كيف مَرّ خط كبريتي ونَصَّفَ الحصاة؟. ولكنها مغرية! جذّابة، ناجحة تقريباً. لا أعني امرأة، بل أعني الهاوية. بالضبط: الظلمة. النوم بعد الضحك. يقول: مرحباً أيها الأسفل.

وفي الزجاج، بدلاً من الصورة الكابية ـ صورته، أبصَر زبيبتيّ نهديها ضامرتين كَسَجين، صفراوين بلون القميص ـ قميص القتل الذي تستحقه. فقالت له الأصوات: خُذها لك. فقال: بأي شيء آخذها وقد استعملتُ يديّ لإسناد رأسي؟ إذن، بماذا أُسنِد رأسي؟. ثم ينزلق إلى الخلف بتشجيع منه. يَسمعهم فيقوم.

تَدخل المرأتان بخطوات تدل على الاهتمام. كانت الأولى قد استبدلت قميصها بآخر مُعَلَّم بعلامات السنك في ورق اللعب، وهي تغرز سيجارة بيضاء طويلة في طرف ابتسامتها المتعجرفة وتنفض رأسها أمام الطاووس، باتجاه الباب؛ حيث تنبع كُرة سمراء، كتفان ممتلئان، ثم يظهر كله، الرجل السمين الأسمر. اسمه صابر، لأنها قالت له: ما كان عليك أن تدفعها هكذا يا صابر. ينبع الرجلان الآخران؛ يلبس نفس البدلة. أعني: لكل واحد بدلته التي تشبه بدلة الآخر تقريباً. يتدلى من عنقيهما حبلان عريضان أحمران. يبدأ الجميع بتمزيق موضوع مهم فيخيب شاهين. يرتفع صوت مطارق من الأسفل. أي أسفل أعني؟ المهم أن هناك أسفل يُطرَق بمطارق ضخمة تضرب أشياء حديدية فيهتز الحائط. تقول المرأة الأخرى: أوقفوا هذا الطَرق.. نريد أن نضحك. ويقول الآخر: لن يمنعنا الطَرق. ثم يُسقِط نفسه فوق أقرب مقعد ذي مسند أبيض، لأنه واحد من المقاعد ذات المساند البيضاء. ويقول رجل من ذوي الحِبال: دعيه يكمل يا فاتن. يقول الآخر عبر فتحته المتقاطعة مع الحَبل: لن يمنعنا الطرق من أن نضحك.. فلنضحك هيا. ثم يُسقِط نفسه فوق أقرب مقعد ذي مسند أبيض لأنه واحد من المقاعد ذات المساند البيضاء المتبقية. تَذهب المرأة الأولى إلى أقصى الغرفة فتَرفَع، على الأصح، تسحب سيجارتها عن ابتسامتها المتعجرفة ليُتاح لها الكلام وهي مُلتفتة عنهم تقريباً: جَهّزوا الأدوات ريثما أعود من المرحاض. ويأتي صراخ طفل من الأسفل الذي يُطرَق بمطارق ضخمة تضرب أشياء حديدية فيهتز الحائط، المطارق تَطرُق،

والحيطان تهتز فيسقطون تباعاً على المقاعد ذات المساند البيضاء. فإما أنهم مُتعَبون، أو يمشون بلا أحذية. أو أنهم ينتظرون صاحب البقعة الحمراء أو المرأة القائلة:.. ريثما أعود من المرحاض.

كلما ازداد الطَرق ازداد معه صراخ الطفل، فيناديهم شاهين بصوت خفيض لكي لا يسمعوه: أولاد العنز، أوقِفوا الطَرق، فلا يحتاج رأس الطفل إلى تعديل أكثر، أوقِفوا هذا... أو. يخاف على المطارق. يقول أحد الرجال وهو يفك الحَبل الأحمر عن رقبته ويُلقيه نحو الزاوية: أشك بنجاح العملية. فيرد الآخر وهو يفك الحَبل الأحمر عن رقبته ويُلقيه نحو الزاوية باتجاه مكان سقوط الحَبل الأول: كلا يا فيصل، سننجح، مع أن الجدران قوية، لكن الرجال أقوياء أيضاً، والمطارق قوية.. وغداً؛ برررررر... تُفتَح الحنفية فيتدفق الماء. يرد الأصلع ساخراً: ناولني الصابونة هُبهُب..

تصعَد اللطخة الحمراء أمام صاحبها، ثم يصعد الرجل خلف لطخته: كل شيء على ما يرام، اتفقتُ مع حلاّب حول عدد الأكياس ثم أرسلتُ السائق إلى المدينة ليجلب الحنفيات والأنابيب والبيرة. يا جماعة ألا تأكلون؟ لقد ذبحني الجوع بشرفي. ينزلون لملء الجوع...

ولمّا كان غريباً عنهم غربة الأعمى عن مقعده فقد وصل إلى طرف الشك بأنهم لن يفعلوها ثانية. حقاً لقد اندثرَت تجربة النهار باعتبارها غير أكيدة الوقوع. على الأصح؛ أنها لم تقع أصلاً. كان ثمة امرأة في النهر تُسمى عزيزة في بعض الأحيان، ورجل آخر ولوع بالكلاب الميتة ومربعات الخشب، ربما كان اسمه جَراد؟ وربما عواد؟ وربما لم يكن له أي اسم.. مَن يدري؟.

فأين نهر القارب وجَبَل الأغنية التي تتحدث عن معنى الحياكة عندما كانت اليابسة تنبض بالنحاس وتمتد حتى سُحب العصافير الهابطة نحو عقدة الحَبل؟.

المطارق تطرُق فينقطع صراخ الطفل، وبماذا سيصرخ إذا فقد رأسه؟. يقول: ها هُم. ليتأكد بأن الحقيقة الوحيدة؛ هُم. يتأكد مرة أخرى، فما علامات التأكد؟. كانت ظِلالهم على الحائط تمس ذيل الطاووس من الأعلى حتى زاوية السقف مروراً بذكرى المُعَذَّب صابر، وذكرى أشكال أنوفهم على الحائط كمناقير طيور مُنقرضة؛ طيور ما قبل التاريخ. إنها حكاية العادة اليومية وما عداها فميّت.

ينوي تسلق الرَف المُثبَّت فوق رأسه بعدما لمس البرودة الخشبية، برودة الجسد لا برودة الخشب. وإن أية محاولة كفيلة بكسره من المنتصف، كَسر شاهين لا كسر الرف.

وتسلل بحذر واضعاً أنفه على شرشف الغبار ولكنه سمع الباب؛ طق طق طق. يقول الطَرق: انزل يا بُنيّ، ولكن على مهل.. درجة درجة كيلا تسقُط يا حبيبي، افتح يا ولَدي ألا تأكُل؟. فيجيب فمه نافخاً غبار الرف: طَرقٌ من هنا وطرق من هنا.. ألا تسمع؟. يقول الباب: أنا التي تطرُق فكيف لا أسمع؟. ويرد فمه نافخاً ما تبقى من الغبار: أعني الطرق هنا، لا أعني الطرق هنا. يقول الباب: تقصد الطرق عند تُجار القطن، هاه!!، لقد اعتذرَت فاتن عن ذلك لأنهم يُشكلون أنابيب الماء، فقلتُ لا عليكِ نحن جيران. يقول: نعم لا عليك إذا كان اسمهم تُجار القطن فإنهم فاتن، فلا تعتقد بأنني متمسك كثيراً بالرف لذا لا أستطيع أن آكل لقمة. ونادته بتوسل فعرفها قائلاً: كنتُ أعتقد بأنكِ الباب، وما هي اللقمة؟. تقول هاجر: أي شيء تسد به فراغ بطنك.. اللبَن مثلاً. ويترك الرف متجهاً نحو الباب: اللبَن؟!.. هل طلعَ الصباح؟. تصيح: أووه.. سأكسر الباب وأضربكَ بالعصا. لا لا تكسري الباب وتضربيني بالعصا، انتظري ريثما أعود من المرحاض. تقول: أي مرحاض تعني؟. فيقول: ما أدراني؟ الجميع يذهبون إلى المرحاض حتى فاتن.

ينزل درجات السلّم على مهل درجة درجة لكي لا يسقُط. بينما كان عواد ينزل ليرى نفسه أكثر في الظلمة ويستقبل الحلم كقُمع بومضات ضوء داخلي يتسع فيُمكّنه من الإبصار وليس المشاهدة أبداً. ضوء ما في زاوية بعيدة ـ إحدى زوايا نفسه، فيرتعش، بل يتسع وهو يشعر بقوة مُدمرة بين أصابعه، ويُنكر المشكلة، إذا كانت ثمة مشكلة أصلاً؟، بعدما يصل إلى الرقص أو الطيران، ويلمس؛ أن كل وقوع في حياته يعني درجة أخرى نحو الصعود بمعية أدوات حفر الحواجز التي يراها من الأعلى مريض اللمس والبصر بحيث تَحوّلَت هاتان الأداتان إلى لوامِس حَشريّة ضخمة تُسبب له الألم لحظة اصطدامها بأي شيء لاسيما الهواء. الخيال منبع الكوابيس في الصحو وليس

في النوم أبداً أبداً، يُبدّل نزعاته من أقصى القسوة حتى أقصى اللين فيكاد أن يسيل نحو وجوه الأحباب والثعالب وذكرى العزيز شَرار كمشاعر تشبه الأنانيّة لاسيما بعد المَغارب.

أما أنه لم يكن يهتم كثيراً بطقوس البيت. هذا صحيح. فلا يُعطي أهميّة لترتيب شَعره، وقد يَنسى ما إذا كان المفرق على اليمين أم على اليسار، باعتبار أن تلك السمة خاصة بالرسامين وهي ضرورية لكي يتميز عن الآخرين بالقَدر الكافي من الوسامة الطبيعية، كإحساس خاص بالجمال يُلغي الهندسية البشرية التي تجعل الإنسان شبيهاً بالدُمية. وأن عزيزة لن تُجهد نفسها في التَعرّف عليه كل صباح عند تجمع الرؤوس.

بدأ هواء الخريف بالهبوب لاعقاً أطراف الأشياء ليُذكره بأن هذه الليلة مجرد نموذج من ليالٍ كثيرة لابد أن يمر بها في طريق الوصول حيث يجنح قبله نحو المُدن المُسرفِة بالتزويق قبل أن يَسمَع صوت الحصى المُتَدحرج أمام قدميه، أو قبل طلوع القمر فلا تبقى هناك أهمية لجهاد الإبصار.

ليس الحال كما تَخيَّل إذن.

كانت الرغبة المُطفأة تبدأ منه لحظة مُلاقاتها وهي تهتز أمامه بشهوة تأتي من الخارج معاكسة للخوف، من مكان بعيد، من غيمة عابرة، أو من أي شيء صَلب كالحاضر الذي ينطق فيه اسمها فيتحوّل إلى ماضٍ بعدما ينتهي من النطق. كان ضوء الجمر يدبّ على جسدها المدهون بعبق الأنثى البشرية وهي تغوص في وبَر القطيفة وتنظر إليه خائفة بطرف عينها. نظرتها تقول؛ اقترب أيها البعيد.. فيمد يديه فلا تصلان. ويسقط رأسها في حضنها و.. تموت. يسحب يديه فيرى ضوء الجمر من جديد مُكَرَّساً بين انطباق الشفتين على كلمة حائرة. يدفع قدميه حتى النهاية البعيدة فيُواجه صورة اللبوة الجريحة. يفكر: إنها خلفه بالضبط. إنها هناك. ويعود بخطوة واسعة فيلقى ابتسامتها المُدَبَّبة.. ثم يعود إلى الطرف البعيد حيث يَفتَح الباب نفسه للضيوف. يمد رأسه؛ تأتي ذكرى الرقصات، رائحة الغبار العائم الذي لم يحط بعد، والسكون الذي يلف كل شيء باستثناء الجِراء الصغيرة اللائِذة بضرع الكلبة الأم ـ وتموء بخفوت، أما شَرار فبعيد عنها مسافة تُقَدَّر بحدود الاطمئنان...

ووجد نفسه في مشغله المظلم، يتلمس طريقه بين الأخشاب، قرر الولوج تحت اللحاف لكي يرى الصباح بعد إغماض العين.

جلسوا منذ البارحة فقام الأسمر البدين من مكانه وقعد لصق المرأة مُحركاً رأسه بطريقة تشبه النَقر، فمه على فمها. بينما انشغل الآخرون بنقل بعض الأشياء من مكان إلى مكان قريب. يَنقُر فمها ثم يمسح فمه. يَنقُر عنقها فتمسح عنقها.

يبدأون بمرحلة أخرى من الهرج وذلك بالانحناء إلى الأسفل. يضحكون بعيون دامعة. يضحكون يضحكون... يجمع شاهين قوّته في محاولة للوثوب فيُفاجأ بالهاوية ويحس أنه صغير بحيث لا يستطيع الذهاب إلى العاصفة عند الأفواه الفاغرة. ثم يتجمع من جديد كأنه يشرب، والسبب يعود إلى تَعَب رحلة القارب. كيف يحدث هذا؟. خدّاها يَحمرّان بينما يَتَرسّب الشحم في جزئها الأسفل لكي يكون انقلابها سهلاً إلى الخلف، وانتهى الأمر لأنها نشيطة آخر مرة على الكرسي الأبيض، تهتز كالغُصن خوفاً من إكمال العمل. ويعود رأسها إلى الخلف مُدليّة أنفها فوق فتحة الضحك على أمل أن تتفق مع الآخرين بعد نظرة إعجاب. فلو كان الوقت شتاءً، والحال معروفاً، لقامت إلى السِتارة تخلَعَها بسحبتين بعدما تُقشّر شيئاً كروياً وتضعه في الجهة المعاكسة للرجل، ولا تحتاج إلى مشاهدة الليل المُثَقَّب بأضواء السيارات القادمة، وظهور مخازن القطن المحدودبة عندما تَسبَح في نور فاضح قرب خرير حوض الماء المكسور.. وهي مستعدة للصعود حتى رؤية الشمس.

قام الأسمر البدين عن مكانه. دار الأسمر البدين دورتين فقالت المرأة: أوي.. ما هذا يا صابر؟. وانتفَضَت فزعة حين رفع قطة سوداء بين نعلين. وقالت المرأة الأخرى: أوي.. لا تحصرها يا صابر، دعها تذهب يا صابر. القطة لا تموء بل تصيح وترفس..

يقترب الأصلع من الشُباك ويرميها إلى الهاوية لكي تنام في الأدغال اليابسة عند طرَف الكونكريت..
ينقطع الضحك. ينظر الجميع في الظلمة السفلى بتمعّن. وتألمت المرأة. يبدو أنها تألمت تقريباً. يتألم الرجل الآخر. يتألم الآخر. ولكن النساء تتألم أكثر بسبب القسوة، ما عدا الرجل الذي رماها بعدما نظر برجاء إلى شفائها العاجل في تلك الرفسات المُتشبثة بالنعلين، وبعدها يقول أن للقطط سبع أرواح، ثم يعود نحو منتصف الغرفة. يدور ويدور ثم يضع رأسه فزق مسند الكرسي فيعطونه سيجاراً ويضحكون..
لحظات غريبة أمام شُباكه، ألقتهم بإهمال على مرتفع مُضيء. يجتمعون لأنهم بحاجة إلى بعضهم، حاجة الأصلع إلى أخيه كحاجة المرأة إلى الرجل. متناسين القطة الطاوية على آلامها بانتظار الصحو.
شَعَر بخطأ الأشياء. كلها خاطئة تقريباً، غير صحيحة، تلك التي تحدث في المربع المضيء.. ولكنها أشياء سعيدة، ينقل بصره باتجاه التل الكبير حيث البوابات الواسعة لمنزل حلاّب مُرتكزة على شعفات الحشائش الصناعية. ثمة رُقَع تهتز مُشيرة إلى قِدَم الأرض رغم ضيق الوقت. فصار رأسه يابساً كعلبة ثقاب.. وشَعَرَ بأنه موجود منذ أقدم العصور، أو بالأحرى؛ يشعر أحياناً بأنه زامَن معظم الكوارث، فيُعانِد على نزع نفسه منهم. هُم. ولكنهم يسحبونه بالضحك المُجدي وليس بالضحك النافع. الضحك دائماً. الضحك إلى ما لانهاية. غير أنه لن يذهب إليهم تقريباً، بل يذهب إلى الزاوية ويمد يده دون تفكير إلى طرف الرداء ثم يهتز بعذاب نادر لأجل تثبيت صورة ما تتكوّن إثر فك أزرار الصدر أولاً، فلا يجد غير تَرسُّب الشحم في جزئها الأسفل، ويتقوس بأقصى إمكانيات النحافة مُلصِقاً خده بالجص حتى السقوط... ويفشَل.
يظل متكوماً في الزاوية، شاعراً بجفنيه يحكان كفه.. ويستمر الحال حتى لحظة سماعه دبيب الفضّة الشفافة على السفوح، لحظة تدفق الضوء حينما تُعلن الدِيَكَة عن طلوع النهار.
منذ عشرين عاماً، تصعد إليه يومياً: ألا تُفطِر؟. فينزل إلى اللبَن وبخار الشاي، ويسمع نشرات الأخبار الأولى: " زَلازل أمريكا اللاتينية. فيضانات الهند. عمليات الفدائيين العَرب. محادثات نزع السلاح النووي. قرارات مجلس الأمن. الإرهاب العالمي. مُخدرات. تَجَسّس. انقلابات. حوادث عنف. مَجاعات السُود. فضائح سياسية. تمييز عُنصري. إرهاب. إرهاب. إرهاب. فساد... إلخ " يفتح الباب فيجد الأربعاء دون أن يعرف الجمعة، وذلك لنشاط الضوء بلا غيوم. خسارة فادحة بعد ومضة الاكتشاف، بأن أسوأ عمل يقوم به الإنسان هو؛ فتح الباب. والضوء حَسّاس بلا حدود تقريبيّة. الأربعاء حزين لأن الصباح مدهون بلون سُرّة اللحاف إذا ما استثنى وفاة أشجار التين في نهاية قَطِفة الطحالب.
كانت الطيور قد هاجرت إلى فيضانات الهند، وبقي العاجز على مائدة النمل الأحمر؛ يَحل ضيفاً مُجَزَّأً في الثقوب.
إلا أن اختياره كان عفوياً بلا شَك. يحسب: الأربعاء هو اليوم الثاني من الأسبوع لأن الثلاثاء يوم أول. كل شيء يُبشّر بالضحك تقريباً، حتى بذور الموسم التي رَفَعَت قِشرة الأرض لتُحَيّي جيرانها من الأعشاب الميّتة.
النزول. سماع الأخبار. الذهاب إلى بيت عواد. اللقاء بعالية وهي تدعوه لتدليك قَرصَة الحَشَرَة. صباح الجمعة، وليس فجر الأربعاء أبداً، بعدما رأت وهي تضع صحن اللبَن وتُدير مفتاح الراديو، ظِلاً خَيطيّاً يتحرك على الستارة المُضاءة بصباح الجمعة فصرَخَت: يا إلهي!!.. أفعى!!. غير أن زهرة التي سمعت انزلاق إبريق الشاي في الغرفة المجاورة، جَرَّبَت أن تستمر في النوم، فجاءتها أمها ورفعتها عن السرير، وهي لا تستطيع الجزم بأن الذي رأته كان ظِلاً لأفعى مُتَدليّة في ضوء صباح الجمعة.
فالشُباك مُغلَق، وشقوق السياج مُسَدَّدَة بالجص باستثناء الفتحة الخاصة بتصريف مياه الغسيل. وجدَ الأثاث مُبعثراً، أثاثها المنتظم دائماً، حول طبعات أحذية على اللبَن المُنداح، فرَفَعَ الستارة

بإشارة منها. أمسكَ بالحَبل ـ حَبل الستارة. يعتقد بأنه الحبل نفسه وليس الأفعى، فتقول عالية، وأعني مجموعة النساء: يُوه!! حسبتها أفعى!؟ ولكنها حَبل. ولكنه حَبل. ثم تُرتّب البيت وتدعوه إلى الفطور.

تقول عالية: هنا.. ألا تَرى البُقعة الحمراء في فخذي؟ ألا تعرف التدليك؟. فيقول: حُكّيه بالحائط، حُكّيه بالحائط. تقول: أحكُّ ماذا؟.. يُوه!!. يقول: الفخذ، فخذكِ، أعني قَرصَة الحَشَرَة، أعني البقعَة.. حُكّيه بالحائط.

تقول: يُوه!.. أحك ماذا؟. فيقول: ألم تقولي أحك ماذا؟.. إنها قَرصَة. يُفتَرض بأي واحد أن يحك قَرصتَه بنفسه لأن عزيزة قالت؛ هل رأيتَ أرملة زوجها على قيد الحياة؟.

تمتعض: أفّ، ابنة القطّان! ماذا تقصد بقيد الحياة؟.

يقول: نعم، ماذا تقصد بقيد الحياة؟ مَن هي ابنة القطّان؟.. آه.. لا لا هي لم تقل ذلك، ولكننا، أقصد نحن.. نكون أحياناً على قيد الحياة.

تضحَك عالية. وعندما تضحك عالية، لابد أن يضحك معها مَن يراها تضحَك.

يسمعان سُعالاً خارج الباب فتسحَب ثوبها وتقول: هذا عَمَّك مسعود. فيقول مسعود وهو دائري الوجه طويله بسبب ذقن العِيادة: هل لدينا ضيوف؟ السلام عليكم. مَن الضيف؟. تقول: إنه شاهين. فيتساءل: شاهين؟؟ ليس لدينا سوى شاهين واحد. شاهين اسم طير جارح، فلا يُسمي بهذا الاسم سوى الصياد، وليس لدينا صياد غير محمود. تقول عالية: صَدَقتَ. ويقول مسعود: أهلاً بكَ، كنتُ أريد الالتقاء بكَ ولكني مشغول دائماً وأنتَ رجل نظيف لو تَعَلَّمتَ الصَلاة فقط، فلا تتجرف مع عواد، الأفضل أن تتعلم الصلاة واليوم جمعة... يقول: نعم، المفروض أن أتعلم الصلاة لأن عواداً ينجرف يوم الأربعاء.. هل قلتَ أنها الجمعة؟.. ها ها كنتُ أعتقد أنها أربعاء، فيما بعد..

مسعود. تقول. أعني تنادي القريب الذي يعرف أن اسمه تحذير في بعض الأحيان بسبب هزَّة الرأس هذه، لذلك لابد أن يخرُج لأنه لا يريد الرد حين يفهَم أن مناداته طَلَب.. فيخرُج إلى الجامع بينما تعود هي إلى قَرصَة الحَشَرَة.

تقول زهرة أن عواداً في المقبرة، فيسألها: متى حدث ذلك؟ يجب أن أتألم. تقول: إنه على قيد الحياة ولكنه ذهب لزيارة المقبرة.

ثمة نساء، ذكريات نساء تقريباً. نساء ميّتات يحتضنّ أطفالاً موتى تحت المطر وعواصف الغبار ومياه البطيخ المسروق كل يوم بفضل الشموس الحارّة المسروقة أيضاً من الاستواء. ليس هناك تَل بالمعنى الجغرافي، فالشواهد مُوجَّهَة صوب الغبار كفقاعات كَف مُتَورّم إلى جنوب الأكواخ. يُحدِّد ببصره مكان الجَدة السمينة آكلة البيض الفاسد، والصور الغامضة التي تملأ الجوف أحياناً حتى الشعور بضرورة التقيؤ. كانت تأتي كظِلال رفيعة نَعش أثر نَعش، مربوطة برؤوس مسامير ناتئة. رجال يحملون رجلاً مُمَدّداً. كان رجلاً.. أما الآن فمجرد رجل ينزل لأنهم يُنزلونه إلى عُمر الفقاعة التي تنفجر حين يجب أن تَكبَر.. وهو رجل مهم. كان ثمة نساء، ذكريات نساء تقريباً، في الأرض المُفَقَّعَة ـ أرض التل الأسود حيث يَستَخرِج الحفارون ألواحاً مسمارية لتُستَخدَم كقواعد لجِرار الماء، بينما ينمو الفِطر في نهايات الربيع داخل أكواب الفخار المدفونة بعدما تَمُر عليها الدواب وقد عادت من التِلال الجرداء..

كانوا يصنعون النواح بمساعدة آلات الدمع، مقهورين هناك. يَصِلون تباعاً كالقَطَرات، مسبوقين دائماً بالنساء ذوات الباقات المطاطيّة؛ أشكال الباميا والعُنصُل. مُتَعطِرات بالقرنفل الطبيعي وروائح مُستَخرَجَة من أندَر الأعشاب ثَلج لليلة ثلجية بعد الشِجار. واحدة بعين السمكة السوداء، قاتلة.. أما الأخرى فلا يبين وجهها لأنها تنظر إلى كلبها الذي يتشمم الطعام والحلوى وباقات المطاط ويلمس الشواهد ثم يبول رافعاً قائمته الخلفية. أين عواد؟. توالى مجيء النساء صعوداً من بطن الوادي كخيط أسود بَلِيل، إذ نادراً ما تُهاجر الغربان أسراباً منظّمَة. خرجن بين الأحجار عبر ضوء الأربعاء المدهون بلون سُرّة اللحاف إذا ما استثنى وفاة أشجار التين في أقصى قَطيفَة الطحالب. يوم الجمعة تقريباً..

جاءت الآنِسات بعد العجائز: لون الشقائِق ودَم الذبيحة. ثم الذكور: لون اللبَن الرائب. ثم الأطفال: لون العِيد وأدوات المُهَرِّج.

أجراس مُعَلَّقَة في أعناق حمير من أصل أحسائي. تركوا فوضى أدوات الشاي والحصران ووسائد الصوف وآثار طَبَعات الأحذية على اللبَن المُنداح، وانسَل بعضهم من الطاقات وأجواف الغُرَف المظلمة الخاصة بِعُري النساء وصُرَر العجائز من الملح السحري وبعض دنانير قَرَضَت أرقامها الفئران..

يقولون بأنه نهار مُهم، ولكن اختياره كان عفوياً بلا شَك. فقد نَذَرَت كل امرأة نذراً خاصاً واعتزمت أن لا تُكلّم أحداً عدا أفراد القرية وضيوف القرى الأخرى. واحدة نذرت أن تضرب نعجتها مائة جَلدَة ثم تصعَد التل راكضة وتنزل مُتَدَحرجَة، بعدما كان الليل مُقاماً بالصيام من قِبل الأتقياء. أعيُن مُحمَرَّة وأفواه مُلَثَّمَة.

وفي مثل هذا اليوم، الجمعة، تُوفي عبدالمجيد قَبل آخر الفيضانات، وهو رجل مهم. كان لا يمسك رغيفاً إلا صار أرغفة بين أصابعه. يقولون: كان جميلاً في بعض الأحيان، بصدر عريض يحجب ماء السد تحت لحيته اللماعة التي لا تزال، رغم مرور الأيام، تفوح منها رائحة البقدونس مُختَرِقة تراب القبر.

وتَحَوّل المكان فجأة إلى ملتقى عائلي بين الأحياء والموتى، وانزوى سليم الراعي مُلصِقاً قدميه بخرقة غمام يقرأ فيها أشكال نعاج ويعضّ إصبعه ندماً على ما فعل بنعجة لم يُفرق بينها وبين المرأة.. وتقيأت خديجة من فرط الصعود وهي تلوّح له بشالها، إذ كان ارتفاع التل تسعين نفي فانية على المدرج، وارتفعت أنّات ودعوات... فأين عواد؟.

هكذا نظر إلى نفسه أمام عدد هائل من الرؤوس والعيون الرمادية المُطفأة، وشَعر بأنه يمتد في أزمنة غابرة أو قادمة، في وجوه بيضاء وسوداء وصفراء خلف تِلال الهنود الحمر وأحزان سُكان التبت الزرقاء، وفي وجوه تحمل مزيج وجهين؛ الخُلاسيين، وهو سيد هذه الخرائب الناطقة بالضحك: أعراس الكُرة الأرضية لا أعراس زُحَل ولا نبتون. الأرض وحدها، الأرض المُثَقَّبَة بالمراحيض. وهو على كل شيء.. كل شيء تقريباً.

سمع قائلاً يقول: اغسل قدميك بعد نهار شاق سيزول عنكَ التعب، فلن تجد في هذه البقعة - صوت يقول: اتركني وشأني - غير وسادتك.. وإذا شئت استخدمها بمثابة زوجة. وشهد رغوة الثدي خلف قميص أسود، مستسلماً لمَجرى المُخاط، في ذلك الانغلاق، امرأة ما تحوّل وجهها بالكدّ إلى صخرة قوقعيّة التعبير بعد الموسم الثالث من تاريخ دفن عبدالمجيد حين حزنت الأنهار فحدثَ الفيضان، إذ أدلَت جديلتها في مكان وقالت: افعل بي ما تشاء، فلن أعترض. وكانت لحيته المُعَطَّرَة تهتز تحت التراب. بين له أن اسمها؛ عزيزة، وأنها تغيب وتظهَر حسب حركة الحشد الأرجُوحيّة.. تغيب وتَظهَر..

لابد أن أعود إلى بعض أيام عبدالمجيد لأن الجميع يعودون، عندما كنتُ هناك أكتب عنهم. يُحَدثون بعضهم عن وقائع موته التي يعرفها كل شخص هنا بالتفصيل المُضجِر، أيام جنون القمر وانطفاء نبضه بعد أن تأخر شهوراً في نوبات قيء وجولات رَجم ليليّة. كان حلاّب يُصبّر نفسه بأكل لحم الثعالب مع أنها من فصيلة الكلاب، ولا بأس فهي لا تُميت مثل سم الفئران الذي دُسَّ في طعام عبدالمجيد فلم يقض فوراً بل تحوّل إلى خَوَّاف من القمر لاسيما في منتصفات شهور الصيف، يُخرج رأسه من شَق حائط مُطِل على الطريق ليتفحص سيقان المارّة ويستخرج غاية المشي في الارتفاع أو السرعة أو دحرجَة الحصى.

وفي صباح إحدى الجمعات وجدوه مُتَخَشّباً يتَدلى رأسه عبر الصَدع وقد عَفَّره تراب العجلات التي حملت البطيخ إلى المدينة. لم يمت تقريباً. لم يمت مباشرة، لكن أعصابه اضطرَبَت، وكان هياجه يشتد في الليالي المُقمرَة فيمد رأسه من ثلمات الحيطان ويرجُم المارين بالحجارة ثم يعود إلى سياج بيته ليَرفَعَه بِلبنات جديدة ويغرز قطِع الزجاج وأغصان النباتات الشوكية في أعلى السياج، حتى غاب البيت ومحتوياته عن الأنظار.

كان الجميع يتساءلون باستثناء شاهين الذي لا يعرف التفاصيل: " ما الذي حدث لعبدالمجيد؟" فيكتمون الأمر عن الغرباء، ولكن الحكاية انتشرت بجهود النَمّامين بحيث تجاوزت سبع قرى ممتدة مع النهر.. والمهم أنهم وجدوه مُتَخَشِّباً وليس ميتاً تقريباً. وبعد مرور عام فلا تَقبَل النفوس أن تُصدّق موته رغم أن الجميع ألقوا نظرة أخيرة على جثمانه المُهاب.

كان حلاّب في تلك الأثناء يحفر أرض مَضيفه بقلق الخطوات ويجمع مساعديه من تجار القطن ويُروّض نفسه على تعطيل الذاكرة لكي يصبح ذلك الأمر من واجباته الاجتماعية. تلك الليلة العطنة، لن تنزلق عن جلده بسلام، لحظات الانتظار الحاسم على القطيفة، فيلتفِت بخفة؛ المرآة خلفه.. ثم تصير أمامه: " هل يصلح هذا الوجه للحُب؟". يسأل نفسه بوقار ويبتسم مُغيّراً شكل عينيه غير مُصدّق تلك الحكاية المعروفة عنه، من أنه لم يرَ النور إلا بعد خمس سنوات من تاريخ ميلاده، حيث كانت عيناه ملتحمتين كقُبتين من اللحم الشفاف يتحرك تحتهما شيء حيّ، وقد شبهَهُما أحد العَطّارين، بفأرتين في كِيس. ولكن إحدى العجائز، مجرد مغامرة، فَتَحَت قُبتيه بسكّين البَصل فرأى الأشياء مُركّبَة عديمة اللون لأول مرة، وقد أثرت الرؤية الأولى على فهمه للأشياء فيما بعد. تلك القصة إذن. كان ينظر في المرآة وقد صار أنفه ممطوطاً ومَلمَس أنفه رؤيا.. وعيناه مجرد جرحين. لكنه قام بواجبه عند وفاة عبدالمجيد، فأشرف بنفسه على توزيع اللحم ـ لحم الثور الذي ذبحه فرأى عيون الصغار لامعة كعيون الجرذان الخائفة فتَقَزَّز من مُخاطهم الأخضر، وعاد إلى حافة الموقد يمط خصيتيه بلا شعور منه وينظر حوله خشية العقارب ويفكر بذبح ثور آخر.. ثم إلى المرآة: " هل يصلح هذا الوجه للحُب؟".

يقولون أنه ارتعَد على صوت رصاصتين في باب مَضيفه وبحث عن مكان الاختباء فلم يجد غير الحَصير يلفه في الزاوية.. وظَل كذلك حتى أدركه شَعبان بعدما سمع الطَلقتين فدفع الباب منادياً: " أيها المُختار... يا مُختار." فَرَدَّت لقة الحصير: " مَن؟ شَعبان؟ أنا هنا فأين أنت؟". ويقول صديقه: " اخرُج" ويُريه ثقبين في قلب مرسوم بطباشير الأطفال على الباب. " هذه المرة في قلب الباب.. والمرة القادمة في قلبك.".

أقُصُّ الوقائع ولا أدري. إنها لأكاذيب تأتي بها الروايات الواقعية عادة. ربما لم يكن الأمر صحيحاً، وربما العكس، غير أنه مُبالغ فيه، لأن شاهيناً فهمه هكذا من الأفواه القريبة وهو ينظر إلى نقطة واحدة؛ امرأة ما، تُجاهد في حركاتها لإفهام الآخرين وقد تحوّل وجهها بالكَد إلى صخرة قَوقعيَّة فأدلت جديلتها في مكان، وقالت: افعل ما تشاء فلن أعترض. بينما كانت لحيته تهتز تحت التراب. بيّن له أن أكثر الأشياء عذاباً تلك التي تتجه مباشرة إلى الموضوع الذي يُعَذّب. ولكنه يُقَسّم عذاباته أمام تعدد المواضيع كإيجاد نوع من البدائل لتلك التي يبعثها المحتشدون وتتحملها التِلال قريباً من الأفق، هبوط الذكريات البَليلة كوحدة مفككة في أشد حالات الغربة قرب الشواهد، عندما يلوذ لكي ينتظر وصولها وهو يعرف أنها تُضاحِك غَيّره، أو تَشرَح لغيره وجهَة نظرها.. ولكن لا شيء يُعادل استواء حاجبيها تقريباً، كتعبير عن الذنب لحظة البكاء: رأى الدمع أبعد المياه عنه، وانكسارها عندما شَعَر أنه انتصَر إن لم تُقدّم له نوعاً من المتعة لأنها تعرف كيف تُميّز مشيته، على الأقل، عندما تراقِب الهابطين، ويشعر بها تراقبه فيجاهد لكي لا تذهب قدماه إلى الجانبين. لم يكن يعرف ماذا سيفعل عند حضورها، حيث تطير اللغة ويظل الاعتراف الأول، البوح الأول، وسيلة مغلوطة في وضع خط النهاية..

جاءت متأخرة وجلست أمامه بعد أن قَدَّم لها صخرة، امرأة صغيرة أعطتهُ شعوراً بضيق الملابس. شَعرها التِبنيّ المجدول وبياض ساقيها ووجهها المعذب.

كانت تُثَرثِر بكل اتجاه لكي تستقطب بتلك الجلبة أبصار الآخرين، وقد ابتدأ التعاطف بحنان خجول ظَهَر أنه مساوي لجميع الأحلام المُمكنة عن عالم الرجولة، وقد جاهد لأجل البلوغ قبل الوقت كدليل على التعب من مواصلة الخيال، مع أن المرء يُنكِر بداياته بعدما يبلُغ.. ولكن البداية تبقى أعظم خطوة تقريباً من بين الخطوات الفاشلة التالية.

كان الأمر بالنسبة له طَلَباً للخلاص من وضع مُتعِب لكي يَسقُط في وضع أكثر تعباً. فبادر، ليس بدافع الحُب النقي كما يحلو للبعض أن يسميه، وإنما بدافع الإعجاب بنزوعها إلى اللامبالاة، وقد حدس خطأ بأنها سَتُقَدِّم له النسيان اللذيذ للخيال الذي لا يتحقق. وهكذا فإنه كان شجاعاً تقريباً لحظة تقديم الصخرة ودعوتها للجلوس، لكي يُعلن عن ذكورته بكلمة (.. . ..) في أذنها. وأن هَمّه الوحيد.. يقول: أتردين.. لذلك فإن هذه التجاعيد.. أتدرين سأموت في الثلاثين أو أتعَرض لأزمة. وفق تصنيف خاص يعطيه حجماً غريباً مع تناسي وجود الآخرين وظروف تشكيل عوامل التعرية الطبيعية وغياب المعرفة عن وقائع وفاة عبدالمجيد، مما يحمل في التفاصيل مشاعر الاحترام المُزَيّف لكي يَظهَر بالمَظهَر اللائق وفق مفهومه الخاص: ولكن الأمر بعكس ما يتمنى وفق شروط النظافة الاجتماعية التي أعرَب عنها فأشارَت إليه كمنبع للأخلاق..

إلا أنه حلم في الليلة السابقة بشفتيها المُطبقتين وعينيها الشبيهتين بعينيّ أرنب أليف. أن يكتب لها عَشر قَصّاصات: " إنكِ مُغرية لأنني مُعجَب ببكائكِ.." و" كلما حاولتُ النوم رأيتكِ مُحتَلّة فراشي فأنام على الأرض." و"بما أنني جائع.. إذن أريد أن آكلكِ يا ضفدعة." و" أعتقد بأنني أحبكِ أحياناً.".. إلخ. إنها أكثر الرسائل الغرامية غموضاً للتعبير عن الصَراحَة، ولذلك اختار وقت ذهابها إلى البيت لكي يسبقها إلى السدرة مُتَذرعاً بشم تُرَب الجرذان، ويسلمها أحد القَصّاصات المطوية، فتفزع: إذا كانت من عواد فلن آخذها. وتدسها في جيبها ثم تصعَد راكضة كتف الوادي...

كان ينتظر النتائج متخيّلاً طريقة ردها في الغد، خائفاً من الغد، وراغباً في أن يأتي قبل الوقت المُقَرَّر - أو لا يأتي أبداً، بافتراض كارثة تؤدي إلى موته أو موتها، مع ذلك، فإن كان الأمر متعلقاً بعشرة أعوام فإنها لابد آتية ولابد أن تقترب كلحظة في حالة حصولها.. فلا يمكن قياس مقدار العَذاب؛ عَذاب انتظار الغد بدافع الرغبة في نسيانه أو التقليل من أهميته عند حصول المطلوب، إذا لم يعتبر ذلك العذاب طبيعياً ولذيذاً بعد أن يَمُر.

فرحة جاحظة تملأ المكان. وجسده يمتطي الهواء، ويتوق للخروج من ملابسه أمام صفقة من الضحك، فيزفر لتبرد أنفاسه.. وتدخله الأشواك، البيوت، أواني النحاس، التِلال.. أما الرجل الملتحي فيأكله العَدَم، لكن رائحة البقدونس تفوح من لحيته عبر التراب. والأرض قديمة.. شيء مُخيف. غير أنها يمكن أن تكون مليئة بالمسرات الشبيهة بقَصّاصات الحُب.

شجرة السِدر فقدت القدرة على الامتصاص وتمثيل الغذاء، وعصفور صغير سقط من عشه وتحوّل إلى طعام للنمل الأحمر. بَحَث في الوجوه، عندما عاد إلى التل الأسود، عن جواب، ولكنها كانت خالية من التعبير: رجل عزيز مات بطعنة خنجر أو بسم فئران وهو لا يستحق إلا الخير.. وتَجَمّع الناس في هَولٍ عظيم. تأتي ذُبابة خضراء فتقطَع الفكرة وتُجبره على متابعة رقصتها.

عواد يهتم بجَمال الأشياء لأن نهيق الحمار يبعث فيه النشوة، كذلك الامتداد الجدب لجنوب التلال.

السماء بغيوم وبدون غيوم. القرية في هذا المكان وليس في مكان آخر. يُحدّثه عن جدوى علاقات سِرّية بين الخطوط والظِلال ويتأمل خارطة من البول على الأغطية المنشورة، صديقه يقول أن الجواريب الصغيرة تعني شيئاً، أما الطويلة فتعني شيئاً آخر.

وهو شاهين، يحدّق في الأشياء فحسب دون أن يُبصرها، ويسمع أصواتاً دون أن يُميزها. الأرض قديمة شيء مُخيف. عواد يقول: يمكن أن يُحِب الرجل أكثر من مرة في حين لا تستطيع المرأة ذلك.. الأرض قديمة. السحلية تقف على جذع شجرة: هذا فَأل سَيئ. هل تتمكن المرأة من أن تُحِب مرتين؟. هذا فَأل سيئ. يُقنِعك عواد بأن الأشياء الصلبة أكثر طراوة من الأشياء الطرية نفسها، ولكنه يخاف ثقوب القوارض في ساقية مهجورة فيبحث عن كذبة مؤقتة تخلصه من مسؤولية مؤقتة، ويجد الكذبة بسهولة ثم يَدخُل المَضيف فيقولون: أصبحتَ سميناً. ويخرُج منه فيقولون: يا لك من نحيف!!. وصَمَت حتى أصاب النخر أسنانه ونبتت الطحالب في زوايا فمه وفَقَد الرغبة في الأكل.. وفي مرة قادمة: كيف يكون الرَد؟.

لستَ شجاعاً.. يقول: أوه.. بماذا تفكر؟. ويُفرِد أصابعه أمام وجهه ـ الطفل جائع لقد نَفَدت علبة الحليب.
أرضعيه من ثديكِ. إنه ناشِف يا حبيبي ـ هكذا من بين الحشد، بعد أن يجلس ساعة على صخرة منفردة يفكر في صورة البيت الذي سيبنيه في المستقبل قائماً على دعامات رفيعة في أوراق المشاريع، ولكنه صورة قابلة للتحوير ما عدا الشرفة المطلة على البراري حيث يشرب القهوة بالحليب ويتحدث عن إمكانية القيام بجولة خلف التلال ـ لكي يُهيئ قلبه للخفقات بعد أن يُشير إليها فيتبعه كعب حذائها الإبريّ ويدخلان في زقاق فيُشير: هذا بيتنا يا حبيبتي. إنه جميل يا حبيبي. وتدور ضاحكة وتُطوّح بحقيبة اليد. انظري صورة اللبوة الجريحة، وفي الجدار المقابل لوحة لعواد ترمز إلى خمول الأجساد في ظهيرة عراقية قائظة. رائع. وسينحدر إلى السوق لجلب البقول والخضار فيجد أن البنايات تنمو بينما ينشف الحليب.. ويزداد الضحك فترتمي على المقعد طافِرة الدموع ـ ويجلس في الحشد على صخرة طويلة مُدَبَّبَة إلى جانب شيخ ذكَّرَه بشهور الصمت الطويلة التي قضاها مُعلَّقاً على الرف، يُحدق في عشبة اختارها بصره من بين أعشاب كثيرة يابسة. كانت عيناه تلتمعان بلا سأم تقريباً. يُفرِد سِبحَته مبتدئاً بخرزة الشاهد، ويعزل الخرزَ الصغير زوجاً زوجاً ثم تنتهي فيقلبها إلى الشاهد مرة أخرى.
يشعر شاهين بانتقال الشيخوخة عِبر المقعد الصلب، وأراد أن يقفز ليُثبِت نشاطه، لكنه كان مُوحلاً كرقعة لا تخرُج عن حدود المكان.
صاح صائح: افسحوا الطريق لحلاّب.. جاء حلاّب، افسحوا الطريق.. ابتعدوا. وحاولَ أن ينهض ليرى الذي سمع عنه، والذي طالما تأمل بيته الجصي المُحاط بحدائق الآس والأعشاب الصناعية فوق أعلى تَل. كان الحشد يَنفَضّ عن مكان ليتجمع في مكان آخر.
أراد النهوض ففشل.
يرى أن الحشد قديم وقد حدث مثله في العام الماضي والذي قبل الماضي وسيحدث أيضاً في العام القادم.
تتَهَدم جدران وتُقام محلها جدران أخرى. يموت أشخاص فيأتي أشخاص بدلهم. أراد النهوض ففشل. حكاية الغجرية التي تحوَّلت إلى قِط، كانت مجرد خرافة. وشُجَيرة الشوك التي أثمرَت برتقالاً على قبر رجل صالح، خرافة أيضاً. يقول: لا أصدق تقريباً. إن الحقيقة القائمة هي هذا الحشد؛ فَم عند فَم، تلامُس خفي لأطراف الأصابع، جسد يلمس ليونة جسد، أضلاع تدخل في أضلاع، امتعاض من بعض الأنفاس، استنشاق، حُب... عُري تحت كذبة الملابس، كلمات مصنوعة منذ زمن بعيد، بَشَر، أناس، آخرون، رجال ونساء...
أما الحقيقة الأخرى: قَدَم أبيه التي خاطَ شقوقها بالإبرة العادية. أراد أن ينهض ففشل. إنه بعيد تقريباً. بعيد ولا يعرف السِر. محض حركات وأصوات وروائح تبدو ثابتة ومُحَطَّمَة كالقِسم الأخير للبوة الجريحة. حُطام كُرسي. نجدة تصدُر عن أسفل القصبة الهوائية، عن قعر العصور المُسلَّحَة. لكن الذي يتحرك فقط، هذا الحيوان الصغير النابض بين الأضلاع، تلك الدَقات الرتيبة التي تُوشك على الانتهاء بعد كل دَقَّة قادمة. يقول: كيف يكون هَمي..؟. مجرد سؤال.. فأين عواد؟.. نظرة جادة؛ رجال لا يموتون وجدران لا تنهار تقريباً. يقول له الشيخ: إنه يبحث عنك. فأراد النهوض عِبر فيضانات النهر ونقصانه في أواخر الصيوف... ففشل. يقول إنه سينهض في يوم ما. باتجاه خيمة الغجرية التي تحوّلت إلى قِط ثم تلفت بفعل المطر والشموس الحارّة المسروقة من خط الاستواء. لقد انحدرت بالأمس، هذه الغجرية بالذات وليست عزيزة ولا عالية، عن قرية شمالية مع مجرى النهر لكي تتحوّل إلى قِط، هنا بالأخص، في نهاية رحلتها السعيدة. كانت تُجَدِّد نفسها بالحلم. نعم، بالحلم يَتَجَدَّد كل شيء.. كانت مسرورة بأثاثها الرث لاسيما بالمرآة وجمرات الموقد والقمر الذي يطل من الشَق. أعني: خُرُوق الجواسيس والوسادة المُتسِخَة، والرجل الجديد دائماً..
أقول لكم: كان العالَم طريّاً في البدء، ولكنه هوى على رأس مثقب، بالأخص؛ فوق فتحات الأسلحة... يقول الشيخ: إنه يبحث عنك، حلاّب يبحث عنك. وأراد أن ينهض ففشل.

رآها مُهمَلة في الصفوف الأخيرة، وهي هاجر، فلا يعرف كيف يقول: أمي. كانت تشيخ أكثر عند حلول المناسبات وتَحتَجِز في قلبها دموعاً مُؤجَّلة، وتبتسم له، تُلوّح له، تُحييه قائلة: وَلَدي. وتعني؛ ابنها شاهين. تبتسم، تبتسم حتى درجة الضحك بطريقة نفخ الأنف.. وينقل بصره نحو العراء لأنه لا يحتمل صدق تلك الابتسامة، ولا حنان تلك الإشارة، ولا الذوبان العاطفي. يرى الأحجار في أقصى النهاية على حافة المَهوى مرة أخرى، يريد إسقاط الأحجار لكي يراها تنقسم إلى غجريتين، إحداهما تُحوّل نفسها إلى قِط بعدما كانت تحفظ نمطاً واحداً من الغناء، تلك الأغاني التي تتحدث عن معنى الحياكة، في الأصل؛ أغنية واحدة.

تأتي رائحة شواء فيرفع بصره نحو العَمود الذي يقول: أنا حلاّب أما سمعتَ عني؟.. لماذا لا يُجيب، هل هو أخرس؟. يقول شعبان: ليس أخرس، ولكنه أبلَه. يقول العَمود: عندما تنتهي جولتنا.. خُذه إلى البيت يا شعبان. فتندفع هاجر: لن تأخذه إلى أي مكان يا شعبان. يقول العَمود بِحِدّة: لا تسمعها.. اسمعني أنا. يقول شاهين: أين عواد؟. وينزل السفح راكضاً...

كان عواد مُنطَرِحاً على الشاطئ مُسلّماً سمعه لحفيف الماء وتَكَسُّر الأمواج الموغل في الرقة، مُتأمِلاً بياض الأفق الممتد حتى إبرة الجبل، حيث يزحف الصفصاف حاكاً بأغصانه نهايات الصخور، كاسراً الهواء المُحَمَّل بذرات واخِزَة. يرسم صورة على الرمل، خطوط بعمق أصابع الكَف، أو بعمق اللوّعة نفسها، يُخاطبها، تلك التي تستشعر مناجم الذهب في البواطن. يحفر الاسم أحياناً: عزيزة. ثم ينكس الرأس فوق قميصه المخلوع، ويتذكر عندما يُدخل إصبعه في ثقب قرب الجيب، قميصها المثقوب.. كموضَة؟. تغلبه بلا صِراع ولا شَفَقَة. هذه النظرة الحزينة بالذات، الرجاء العادي لأنثى الرجل. تغلبه ـ القميص. تغلبه ـ نافذتها الخضراء تغلبه ـ الخيط القطني الدائم... الحديث ـ حديثها الذي صار رتيباً.

الحياة على الشاطئ صامتة، خاصة، ما عدا هديل الفاختة الذي يعبر الماء، وجهاد النوارس لاصطياد الأسماك الصغيرة.

يتلفت فيرى الخطوط التي هي عزيزة ويغرق في نقيق أيامٍ عاشها راكضاً على أطراف فُسَح الرمل، بعد التعب، يلقي جسده ويشعر بأنه مُشابِه لشوكة نبتت صدفة.

توقظه نشوة الدفء الأرضي فيصعد نحو البعوض منادياً: عزيزة. يهتز الصدى فوق تكسُّر الأمواج، يهتز الجبل: عزيزة زة زة زة.. عزيزة زة زة زة زة زة... ويَسقُط على أطرافه مُخاطِباً خطوط الوجه بصيغة التَذكّر. أساريرها تُفَتِّت خيوط نسيج القصاص. الوجه المُدَبَّب الحزين. تلك الابتسامة المُلصَقة بالحس المُحَدِّد للخط الخارجي.

خط الرأس الرملي. سيولة الجفن واعتبارات شُباكها الأخضر والقميص المثقوب، والشَعر المجدول كَرَقَّة خروف يُذبَح عند حدود التحية الكامنة في العينين النادرتين، والمسافة بين الأنف والشفة.

يلتصق أكثر ـ ذروة الحُب والاحتضار. الخد يُضيء بشيء من البلاهة والفتور، ماء العجين.

يُرسِل كفه ليسحَب المومياء من الرأس.. ويبدأ بقُبلَة رملية طويلة، قُبلَة واخزة وخانقة.. تقترب لحظة حاسمة فينتزع نفسه من الفراغ المُخَصَّص له في الهواء الذي خلف ظَهره، ويَتَفَتَّت إلى حَبات رمل غامراً خطها الخارجي، تاركاً شاغر الجسد:: هنا كان عواد.. .. .. في النهر..

عندما عادت في الساعة العاشرة كوقت مُحتَمَل لرجوعه التقته على الكتف فسألها عن عواد، وسألته عن عواد. ثم تذكر قصاصة دعوة العاطفة. ولكي يُجَنب نفسه أزمة المواجهة حتى يألف الجو مثلما يدخُل الظلام منذ عشرين سنة ثم يألفه بعد دقيقة بحيث يُمكن رؤية أشباح الأشياء تقريباً بعدما كانت سوداء كالظلام نفسه.

وهي؛ عزيزة، امرأة دائمة الخُضرة، منكسة الرأس فلا يستطيع النظر إليها مباشرة لكي يعلم إن كانت تنظر إليه مباشرة أو تحسب حساباً للرَد.

تستدير ماشية أمامه وهي منكسة الرأس أحياناً، فينظر إلى كتفيها النازلين. تميل برأسها مُحاوِلة تنظيم المشي كأنها لم تقرأ: " أعتقدُ بأنني أحبكِ أحياناً.. ".
وتحت وطأة الإحساس بضياع الجهود وسخافة التوقعات، ظَهَرت له الحالة بأهمية القتل؛ طويلة في حسابات الهواجس وتخديش الذنْب، لكنها فاجأته، وهي تُفاجِئ أحياناً، بِنَفضَة رأس، وظَهَر وجهها قرب وجهه مباشرة لكي تقول: أراكَ مُؤدَّبَاً. فيجيبها دون أن يحس بالمكر: أشعر بالذنب. فتقول: أبداً.. لا داعي.
اعتَقَد بأنه أبصر إشاراتها التي استعانت بها لتَقريب الفكرة، ثم واصَلَت الانتباه إلى تنظيم خطواتها كأنها نسيت وجوده خلفها، رغم أنه يعرف بأنها تحس به كما تحس بنقش غريب على ظَهر قميصها إذ ترتديه لأول مرة. ومع أن حوارها القصير كان شبيهاً بالإشفاق الذي يُعطيها مظهر التَعَقُّل، فقد منحه قَلَقاً واطمئناناً في آن واحد.
ولكنها أنكَرَت القصاصة ورضيت، في الوقت نفسه، أن ينفرد بها في المَمَر بخجل أصبح سِمَة مُلاصِقة له معها.
واعتَقَدَت بأنه سيُحَدثها عن قدراته في الغطس وفهم الآخرين، حيث يكفي ذلك لتخريب المشروع انطلاقاً من تصوره حول فهمها، بأنها تختلف عن الأخرَيات تقريباً.
مُجازَفَة الإحراج، مُعَزَّزَة بعتمة المَمَر وهي موجودة إلى جواره، يكاد أن يلمسها كمَلِكَة من مَلِكات الجن، بقَدَر إحساسه أن شيئاً ما يموت فيه عند حضور الآخرين.
يلتقط حصاة صغيرة ويضعها في حذائه فتقول: لماذا؟. يُجيب: لا أدري، ربما أرتاح. وتقول: هل تذهَب إلى الجَدوَل؟. فيجيبها: نعم أذهَب إلى الجَدوَل.
لا يدري كيف وجدها هناك تقطّب حاجبيها قرب الجدول وتضحك فيشعر أن اسمه: تَعَب.
وتُكلمه بسعادة مُحيِّرة فيتمنى أن تكون عضواً أليماً فيقتصه ليرى بياض العظام. لكنها؛ عزيزة، محض حكاية قديمة من حكايات دوائر النعمان، إحساس بنهاية الرف والانتصاب الدافئ تحت الغطاء...
تَوَقعَت أن يحدثها عن شعوره بالتفاهة وأفضلية الموت، وحَسِبته يفكر جاداً بوضع حد لتنفسه، لذلك عَصَرَت رأسها لكي تفلح في اسقائه قناعة الرضى والقبول بالحد الأدنى، وتُناضِل لتحويل عناصر التعب إلى بريق حتى بدا لها بأنه مقتنع ولكنه غير فاهم، فازداد حماسها حد الضحك من طيران القُبَّرَة اللولبي، وهي على وشك أن تغيّر فكرته السوداء عن حالة الجو من حيث الحرارة والرطوبة والأمطار والضغط الجوي والكثافة السكانية حتى الزوايا الخاصة المظلّلة بشجيرات الدفلى، لتبثه آهاتها وتنساه.
وصار على يقين تقريبي بأنها تدهِن جفنيها بلون كرزي وأن بعض ثيابها مُشتَراة من محلات الأطفال.. نزولاً إلى حذاء الرياضة؛ يخب إلى إسفلت القنطرة المُرَقَّعَة بصفائح دِهن الراعي.
كان بإمكانه رؤية الماء عبر بعض الثقوب غير أنه فَضَّل النظر مباشرة نحو حافة الجدول؛ ثمة طيور بيضاء تلقُط الرز المُنحدِر مع سواقي الاستحمام وقد تَخَطَّطَت الحافة بمياه رغوة الصابون. أعطاه الطين المُغطى بالطحالب شعوراً غامضاً بأنه قد يكون مرتفعاً أحياناً، وأن القنطرة قد تسقُط فوق ثقوب أحجار مُلقاة من قِبَل المارّة كأفواه مُستَنجِدة في الطين بجوار عُلَب البيرة.. ثم يجلس بعد العبور على إطار سيارة.
تناديه: شاهين، انظر في عينيّ. ويتطلع بسرعة ثم تنزلق عيناه إلى الأرض ويدفِن وجهه صائحاً بمرارة: لا أقدر.. لا أقدر. فتسأله ببرود المُنتصِر: لماذا لا..؟ وهي تعلم أن في عينيها ضوء أخافه. فيقوم بهدوء ويتسلل على القنطرة صاعداً، ويسمَع صوتها تناديه: شاهين ارجع.. شاهين...
ويذهب ليطوف غُرف المنزل بحركة مغزلية حذرة، رافعاً بصره ببطء شديد مع صعود السلّم فيُبصِر ظِلالاً لكائنات تنزل؛ أرواح تمائم الشقوق. خطوة إلى الأمام، خطوتان إلى الخلف.. مخافة

أن يجد الذي يبحث عنه. صورة عين ضبابية غير مفهومة. وتقول: " انظر في عينيّ ". ويصيح بين الجدران: لا أقدر لا أقدر.. لا أقدر. فتجيبه الجدران مُهتَزَّة: لا أقدر در در... أقدر دردردر...

مع أنه كان ينتظر شيئاً نادراً لا حَد له، ففاجأه من حيث لا يتَوقع أن يأتي قبل سنة، فجاء. أتى. حَضَر، وهو الذي يخاف التجارب التي لا تأتي من المغامَرة. يقول أنه جاء مُرعِباً لا يشبه الصورة المرسومة عنه في الرأس. ولمس اللذة المُرعِبة للعتيق بلا مسطرة، كذلك اللذة المُرعِبة لذهَبيّ العين؛ حارّة قاحلة كحطام القمح والروائح النفاذة المُنتقاة من أنواع فِطر الفخار. وهي، هذه المَذابح الصفراء التي نادراً ما تصِل إلى درجة القتل، تنقُل خلال السطوح رعدة إلى يديه لحظة اللمس، بحيث يفقد وسائل التعبير باستثناء القفز والصراخ: لا أقدر در در در.. ..

ويرى عينيها الذهبيتين بعينٍ فُتِحَت في مصفَعَته. لو يواجهها. يقول: لو أواجهها مثلاً. في صحراء خالية من الأثاث فتقتله أو يقتلها. فَرق كبير بين أن يموت وبين أن تُميتَه. إذن لا فرق تقريباً لأنها ستكون عزلاء ويكون أعزَل عدا سلاح العَض. وينسى الأخطاء والرغبة وغبار البُسط العتيقة وجيوب الجدران وعلب النقود، في وضع مُجَرَّد أمام عينيها اللتين تتجهان إلى عينيه، مستدعياً تمارين الصمت وقوة البشر الذين نسيهم في الموقع والحظ، ولكنه سيكتشف، فيما بعد، بأنهم يَرفعون قدميه لكي يمشي، ليس الحظ بالضبط، بل السَطْوة وليس القوة المُصنفة ضمن جدول الاحتمال.

يلتفت بسرعة إلى الخلف ليراها بعين فُتِحَت في مصفعته ولكنه يرى شخصاً آخر يشبهه، ويقف بصدد احتضانه ليتّحِد به ويخدشه. يَذكُر مَرة كَرَهَه.

أذكُر مَرة كَرهته. وهو يستشف ثوب امرأة وقَفَت في الباب فرأى استدارة فخذيها. كانت تطلب عوناً من أبيه ضد حلاّب. أما الآن فسوف تنبثق له من كُرات الصوف وسيَحتار في أي وضع يكون؟ لأن الاختيار يُقَسّم الروح، فإن خُيّرَ بين شيئين فسيختارهما معاً.

ويقوم المرء بأسوأ الأعمال أحياناً: أن يَفتح باباً فيجد الأربعاء. ويُفتَح الباب فيتغير الفضاء، ويصعد لصق الحائط على رؤوس أصابعه.

طلَعَت العجائز من الوديان، لحظة لمس التين النائم، مُلبيّة دعوة هاجر بمناسبة خُروج ابنها إلى الناس لأول مرة، كمل طلَعَت من قَبل لرؤية الصبي العجيب، بشعره الذهبي المُمَشَّط وهو يبتسم ساعة مولِده لدائرة الوجوه المُجَعَّدَة ويَجز خصَلَ الشَيب، وقد صِحنَ بصوت واحد: " اسمه محمود!! أليس كذلك؟".. وهكذا كان...

بعدما صار البيت نَهباً لحركة دائبة، أُجبرَت هاجر على نزع الحِداد تحت تأثير الخجل واللوم بحجة أن البيت لم يعد خالياً من صوت الرَجُل، فقد حَل شاهين محل أبيه وسيقوم باتباع الأثر الضخم ابتداءً من العتبة فالوادي فبراري الأرانب، وهو يحمِل البندقية ذاتها التي وُجِدَت مدفونة بعد فُقدان محمود بثلاثة أيام، وكانت مُعَلَّمَة بقطرات دم أسود لم يُعرَف ما إذا كان دمه أم دم أرنب؟.

وحين خرَجَت من غرفة نومها صَعبَ التعرف عليها لأنها بدت امرأة أخرى في عيون المدعُوّات، بعدما دلكت وجهها ببلورات الشَب لغرض إزالة التجاعيد، ولبسَت مِلفَع الحرير الأحمر وغطاء الرأس المُنَمنَم، وقَسَّمَت نفسها بحزام فضي عريض لإثبات فعالية الخِصر، فهَتَفنَ بصوت واحد: ياه!! لم يبقَ إلا العريس. ولكنها تلَمَّسَت قِلادة سِن الذئب بخجل لِتُذكرهن بها.

تساءلت العيون عن صاحب الشرف بهذه الدعوة، فصعدَت هاجر مُصطَحِبة امرأة أخرى، كان اسمها زهور على الأغلب، أو أي اسم آخر من فصيلة أعشاب الحدائق، فوجدتاه يقفز باتجاه السقف المنخفض في محاولة لطبع كفه على السخام.

فصاحت به: توَقَف. فلم يعرفها، واستمر في التجريب حتى أقعَدَته بالقوة قائلة إنها هاجر، وهو ابنها لأن للابن أُماً واحدة. ولكن قد يكون للأُم عدة أولاد أحياناً. وتقول تلك الحمراء: انتهى الفَشَل.. مِن هذا اليوم أنتَ رجُل. وتقول أنها ستعود بعد دقيقة فلا يتَحرك من مكانه. وتَسحَب

زهوراً نحو الأسفل ثم نحو الأعلى بعد قليل، تحمِلان المشط وماء الورد وجلباباً نظيفاً إضافة إلى البندقية وحزام الخرطوش. فأخَذتا بتمشيطه وهو يصرخ: لا أقدر لا أقدر. كانت أسنان المشط تتكسر تباعاً في قَطيفَة رأسه. بعد ذلك، أنهَضتاه ونَصَّقتاه بحزام الخرطوش وحَمَّلَتاه البندقية فأسقطَها. وصاحت به: ارفعها. وصاحت به: تماسَك. وصاحت به: عَيب. فانقَطَع نقيق الأسفل، نقيق الأشياء الحلوة، الدبس والشاي والنيكوتين والنميمة. ويصعَد صوت إحدى السُفليات على السلّم: ما الذي يجري؟ هل لُدِغَ أحد؟. فترُد هاجر: كلا، لا شيء. ويعود النقيق. كلهن يتحدثن معاً فلا تَسمَع واحدة ما تقول الأخرى. هذا النقيق بالذات..

يحس وهو يرفَع البندقية بطعم الشاي بلا سُكّر؛ طعم المؤامرة لغرض سرقة الاسم. اسمه هو. شاهين ابن البقرة الحلوب. سبعة وعشرون عاماً من المؤامرات لأجل هذه اللحظة الذكية ويسقُط. طعم الجحيم النقيقيّ في أسفل الهاوية والساعة الأخيرة من العيش والذهول والرعب والمؤامرات مرة أخرى، حيث المذابح الصفراء التي نادراً ما تصِل إلى درجة القَتل ـ مذابح الأخوة البَشَر.

ويقول أنه يشتاق كثيراً إلى شُباك الضحك وبرميل الابتسام ووشِيش السكون والامتداد والفراغ والعُري، ثم الركض الحُر بلا توقف، والسقوط الحُر بدون اصطدام. وهو شاهين ابن هذه الأسماء بلا قيود، يشعر أنه يبتعد عن نفسه فلا يعرف إلى أين سيأخذونه؟ وماذا سيفعلون به؟. ويريد أن يهرب فيجد الباب مُحاصَراً بزهور، والنقيق ينتظر.. فأخذ يضحك يضحك...

فشاركته هاجر وشاركتها زهور وشاركهم النقيق، فاهتز المنزل بعد ذبول بضحكة عظيمة أسكَتَت أصوات البيئة من زقزقة ونهيق وخوار وعواء ومواء ونجدة وتوسل وأمر وطلب ومناداة وضحك... وتصعد فتحات الضحك على السلّم، ويبدأ التصفيق والغناء: " بنيّة ويا بنيّة يا ويلي هنا، لبس كِتان واردانه خفيفة يا ويلي هنا، أنا المَهيوب سَمّوني خفيفة يا ويلي هنا.." تصفيق. ولا أدري ما معنى التصفيق؟. صوت سقوط كَف على كَف. ويُنزِلنه محمولاً على الأذرع الصلبة، متكئاً على الأثداء الذاوية، فيعلَم أن لا جدوى من الرَفس، لأنهم سَقوه بالقوة ـ في مرة سابقة ـ حليب أنثى الحمار لأجل الشفاء من السُعال الديكي. واحتاجَ لرائحة السُوس. آه.. السُوس!. احتاجَ إلى النوم تقريباً، ولكنهم أجلسوه مُنفَرِج الساقين تحت عَمائم سوداء وكلمات مُبهَمَة وصيحات فَزَع ومناخِر كثقوب الفئران المليئة بالدَغل. ما شاء الله ما شاء الله. فقال: هَخ. وأفرَجوا ساقيه أكثر.

بَهجَة. واقفون. ألوان. روائح مُحَضَّرَة من أندَر الأعشاب. كانت الزغاريد تَخرُج من أنابيب البنادق، أما النساء فيُطلِقنَ من أفواههن الرصاص.

ويَتَقوّس حتى تُلامِس جبهته الأرض ثم يهتز بعذاب نادر. يبكي لأول مرة منذ عشرين عاماً... أوقفته النساء. سُكون عظيم بعد الضَحكَة العظيمة. وحلّلنَ اشتباكه المُعَقَّد كاشتباك الفَخ، فاقتَرَحت زهور بأن يتبَع آثار أبيه إلى البَرّيَّة ليتذوقنَ لحم الأرانب بهذه المناسبة العزيزة، لكن هاجر ارتَعَدت وأرادت أن تَفتح فمها ففُوجِئت بكَف.. وهكذا قَبِلَت بصعوبة تحت وطأة مَشَقة العار، فلم تتمكن الكَف من حجز دمعتها.

بدأ التصفيق مجدداً فخَطا مدفوعاً بأجساد وقَرصات وانتقاص بقصد التشجيع. وتقول إحداهن: ما شاء الله إنه يمشي. ويَصحنَ جميعاً: شاهين يمشي، فَرخ البط عَوّام. عَوّام. ولكنه يتدحرج تقريباً. يشعر أنه في النوم يلوذ ببعض الأستار، يلوذ ببعض الحشرات لكي لا يُرى. يُغمض عينيه لكي لا يراه أحد. وأن نصفه الأسفل ينهار بسبب ثقل الحزام، غير أنه يمشي تقريباً وقد التَصقَت العيون التالفة في ظَهره.. وأخيراً، سمع صيحة إعجاب حين أكله الوادي...

بمحاذاة خَط الحصى المُعَلَّم بقطرات دماء الطرائِد التي تحوّلت إلى عصارة عَطِنَة بعد مرورها بالأمعاء، وذكريات خدوش ذيول الحيوانات المصروعة، إضافة إلى الحُفَر المُخَطَّطَة كإشارة إلى مرور الإبرة التي تلم الشقوق وتنتهي بحُفَر تصغر بالتدريج حتى الخنصر، وجلسات نفش الريش أوقات الاستراحة، حيث تُرمى الخراطيش الفارغة بعد نظرة ترحيب. تلك آثار الفقيد التي سَجَّلَت مقدار ارتفاعه عن الكُرة الأرضية حيث أُتيح له أن يرى الضوء حتى خَط الأفق. كما سَجلَت ثقله الذي كَسَرَ القِشرة وغاص لمعرفة سِر الإنبات والوصول إلى عُقَد جذور الشوك واكتشاف دَرَنات

الأصناف الصالحة للأكل عدا المعروفة من قِبَل الناس؛ كالكَعّوب والحَيلوان والضُبَّح وخصية البغل وخصية الجَدي والسعدان والفريون والجنيبرَة وزهور النُوّار، مع الحذر الشديد من بعض الأصناف السامّة؛ كالهوبَر وقَضيب الأرض وحُبوب الهَلَوسَة والعرهُون وبعض أنواع البُصيّل... إلخ.
وذكريات أصناف أخرى ذهَبَت مع الربيع باستثناء العَنيدَة في الصبر على العَطَش كالعوسَج واللزّيق الذي يَجزّ صوف النعاج.
ظهَرَت انتصابات محمود في الجهات الست لحَجَر النَرد المُحيط بالتائه كعلامات الزجاج قَبل التنظيف.
أعني ما مِن شيء يهتَز. لم يكن أي شيء يتحرك تحت السماء. أعني؛ هذه البريَّة بلا رجفة ولا أنَّة تشير إلى خطوط الضواري ومصادر المواد الخام للأرنب عبر مناطق هبوب عواصف البعوض، أعني؛ البَقّ.
فلا ينتهي الوادي من جهة البريَّة قبل الغروب لأنه يمد أذرعه بين ممرات الشوك متحسساً جهاد الطبيعة العتيق لحماية القدر الأكبر من أبنائها وذلك بوضع بعضهم كمَصَدّات للرصاص دفاعاً عن المخالب، وإتاحة الفرصة للحائمات من الرخم والزاعقات لإعلان بشرى الوليمة.
كان صِفراً، تقريباً، إذا ما قِيس بتعدد الأشياء وكثرتها، ولم يكن أي شيء يتحرك تحت السماء. ويعرف أنه محض صِفر أمام خلود ألوان الأحجار، فيشغل نفسه بالتنفس ويعاني من ألم الحزام وأنبوبة الإطلاق، مفكراً بضياع جميع الجهود. أعني؛ جهود الحذر من الخديعة الثانية.
يعود إلى تلك العصا أحياناً. ثلاث أو أربع حوادث فقط. هجوم الذئب بأربعة أرجل مخلبية، وأحياناً بثلاثة بعد أن جُرِحت الرابعة. كان يقرض أظفاره في حفرة، لا لكي يلتذ بأهمية التاريخ الشخصي.. بل ليتأكد أن اسمه: شاهين، وأنه يحب عواداً تحت السدرة لأنه صديقه ـ وقلما يلتقي صديقان بلا أسلحة ملفوفة. كان يلعق الدبس بسبابته ويسمع النداء المُحَذِّر:" شاهين، ابتعد، إحذَر، تيقظ، انتبه، اختبئ ". الآن، هذه اللحظة بالذات، يبحث عن الصورة القديمة؛ لقطة تبدو فيها الطيور هاربة نحو صحارى آسيا لتموت بلا رعب مُستغنية عن الماء، وهي طيور مائية، لأنها لم تكن آتية من جُزر القمر بل من تلك المرأة المسماة: "هيروشيما"، آنذاك، عِبر نشرات الأخبار، حيث يضعون الباقات تحت قدميها كل عام وهي تُحدثهم من وراء ضريحها المُحَطَّم وتُخبرهم بأسمائهم لحظة الاهتزاز أمام الزاوية. وهو يقول بأنه سيعرف شيئاً حتماً، سيحب شيئاً، لأن مبدأ الملاحظة لن يكذب عليه وهو يراقِب نفسه تطول وتُغير عاداتها وتجد في الحياة أسماء جديدة.
يتبادلان حروف اسميهما، هو وهي: شاهين هيروشيما. لأنه كان يحلم بتلك المرأة الفاتنة من اليابان لحظة هجوم الذئب بأربعة أرجل مخلبية، وأحياناً بثلاثة بعد أن جُرِحت الرابعة. تلك الليلة. سأقول: تلك الليلة، ولا أعني أنه يتذكر. ليس لأنه عديم الذاكرة، بل لأن لديه ذكريات وأحلاماً جديدة باستمرار. بالضبط: لأنه يحلم أكثر مما يتذكر، فلا وقت للماضي.. تلك الليلة: كان الأب يسكُب في قلبه، بطيئاً، مبدأ الرجولة مُعتقِداً بأن توالي الصدَمات يفتح مَمراً باتجاه الخِبرة والقوة، وهي هذه المناعة الشبيهة بخدوش تطعيم الجدري.
كان قد اصطحبه في تشرين ضائع بعدما استعار سيارة الجيب العائدة لصديق، قديمة شَغولَة في براري الأرانب البرية. شهدتُهما يَصعدان، يرفعان سيقانهما عن الأرض. أقول: شهدتُهما، لأن الكُتّاب يَشهدون على جميع مآتم الأرض ويتحدثون عنها، لأنهم أكثر المخلوقات بطالة..
كانت مُرفقَة بشرط الحصول على نصف الصيد. "فلو اصطدتم أرنباً واحداً فلي نصفه" يقول صاحب السيارة. "ولكننا أكثر ذكاءً من جميع مخلوقات الله ـ يا بُنـي" يقول الأب. وكان فيها ذلك الجهاز الذي ينقُل الأخبار عن المرأة اليابانية، حتى في أشد لحظات المتعة. رغم أنها تحاول، تلك العَجَلة العجوز، أن تُغطي الأنباء بهدير محركها، وتُطلِق كشافها في غبار الأراضي المُسَطَّحَة، فتتحرك ظلال الأشواك بين الأخاديد.
ثمة غيوم صغيرة بعيدة.. بعيدة جداً.

ظلمة رصاصية. بَرد. بَرد. حيث تُعَشعِش الأرانب ذات الشفاه المُشَقَّقة والأنوف التي تشم بَقُول المزارع البعيدة، إضافة إلى طيور الشقراق المُستسلمة لحلم البيض والتناسل وهي مطموسة الرقاب وقد أبصَر ريشها الزيتي الملون في الضوء، ريشاً أزرق وأخضر وأحمر وأصفر... وتمُر فوقها العَجَلة...

ما مِن شيء يهتز. لم يكن أي شيء ينتصب تحت السماء. هذه البريَّة بلا رجفة ولا أنّة ولا هدير ذي صدى يَصلح كموسيقى لمن يطيب له الغناء في الفلوات مثلما كان يفعل محمود. وهو يَشعر دائماً بضرورة الطَرق على رأس ابنه بقصد المداعبة أو التربية، فيسأله الابن:" هل تحب الأرانب الغناء؟" فيجيبه:" ماذا قلت؟.. لم أسمَع". "هل تحب الأرانب الغناء؟". "ها.. غير وارد هذا الشرط في مهنة الصيد، ولكننا نُغني عندما مطمئن". " أنا لا أستطيع أن أُغني". " لأنكَ خائف". " لا " " وأنا لا أستطيع أن أُغني". "تكذب". " لا ". وينظر عِبر زجاج النافذة الخلفية ـ في الحقيقة؛ لم يكن لها زجاج ـ فيُبصر أضواء فوانيس القرية بعيدة بعيدة.. بالكاد تُرى...

الأرض واسعة ومتعالية عن الضوء، تمد أطرافها بغرور كسول، مُعَطَّرَة من خلال الغبار عِبر شقوق الأبواب، تتكور لكي تلاعب السيارة وتدور باتجاهات مختلفة محايدة. تلك الوهاد بلا متانة ولا هشوشة بمثابة أحد الجبال.. وكان خاشعاً، سعيداً، دانياً من الضحك العلني مسافة شَعرَة.. وأحياناً لا يتمكن من كتم ضحكته..

شَعَر بشوق إلى الإغماء، مع أنه نادراً ما يصل إلى الإغماء، فوَجد نفسه في كف الوادي وتساءل في أي إصبع سيذهب؟.. إنه يحتاج إلى هذه اللحظة بعد التَعَب، لحظة الإغماء تقريباً. لأن الحصول على الصيد يتطلب إجهاد العين بمراقبة الأشواك التي تَركُض.

وبعد ساعة، وربما أكثر، سيسرقه التعب حتى يوشك أن يقول: يسرني أن أسقط فوق سرير. لكن الأمل بتغيير أحواله ينبثق قبل الغفوة وقد عَجَّل من اقتراب النوم، ثم يستيقظ فيجد كل شيء كما تركه؛ الدجاج في الحوش، النمل والعصافير تبحث، كالمعتاد، عن الحَب الساقط سهواً من ثقب كيس. غير أنها ـ عندما أعود إليهما معاً ـ لم ينقطعا عن التوقع بحدوث شيء شبيه بالكارثة. شوكة. شوكة. جُرف. قُبَّرة. شوكة. قُبَّرَتان... والإحساس يتغير بانبثاق تل يحجب الضوء أو حفرة تتطلب ضغط القَدم، فيُغريان بعضهما بصيغة التهنئة. كانت ضرورية تقريباً، تلك اللمسة، لحظة المصافحة ثم الانهيار على المقعد، إذا كان هناك مقعد ننهار عليه، وهو الوحيد من بين مقاعد كثيرة غير موجودة أصلاً... وهي ضرورية بالنسبة لشخص مُعتاد على بَرد البَراري، لأنه يعترف أحياناً بعدم قدرته على فهم شيء. إلا أنه يُحب، هكذا، كل شيء كما هو لحظة اهتزاز التين، وأخبار الآنسة: هيروشيما عِبر مذياع العَجَلة.

أبصَر العيون الفسفورية للذئاب، دامعة آمِلة تحت الحُفَر بتفتيت أضلاع جسد بشري. ويقفز أرنب في الضوء. بينما يبحث عن أرنب في الضوء. فرق كبير بين ضوء الليل وضوء النهار. وصاح الأب:" هاه!!". وصاح الابن:" أرجو أن لا يَهرب". وصاح الأب:" لن يَهرب مادام في الضوء". وركَل المُوَقِّف ونزل بعدما ترك الضوء يسقط على ظَهر الأرنب الذي شم نفسه وتكور حتى صار أصغر من الفأر. أحس بخوف الأرنب فتمنى أن يُخطئ التصويب، لكنه لا يُخطئ إذا ما وجَّه الأنبوب بين الأذنين الطويلتين. وسمع الابن شيئاً يسقط من باب السيارة، ورآه يهش الأرنب فيقفز محاولاً الخروج من الضوء و... تلك الرنّة الجافة، تدل على الموت أو الفرح: طاخ. وصداها: طاخ...

بمحاذاة خطّ الحَصى المُعَلَّم بدماء الطرائِد وذكريات خدوش ذيول الحيوانات المصروعة، إضافة إلى الحُفَر المُخَطَّطَة بإشارات مرور الإبرة. نحرها بسكين صغير ثم ترك الدم يسيل على أنف السيارة لأجل التَبرّك. وضحك آنذاك عندما اجتمعت العائلة يوم الجمعة، وغنى آنذاك بعد انطلاق العَجَلة الهرمة من جديد وانحدارها في وادٍ. كانت هيروشيما معهما رغم الضوضاء. ويَبرز ارتفاع صغير فلَم يتمكن من تفاديه فيضطر لصعوده ثم.. "آه.. هل أنت بخير يا بني؟". " بخير يا أبي". "لا أظننا نستطيع إخراج السيارة من هذه الحُفرة".

وبمحاذاة خطّ الحَصى المُعَلَّم بدماء الطرائِد توقف لكي يتألم من ثقل الحِزام وهو بحاجة ماسة إلى الإغماء. يستدير نحو القرية فيُبصِر بَشَراً مُلوَّنين بألوان الحصاد والنار والباذنجان، طائِرين مع انحدار التل بارتفاع إصبع، وهم يرقصون بين الصفصاف في أحد الأيام العاصفة إلى جانب غسيل البياض والحيوانات الحُرَّة.

وفي الرابعة عصراً، ساعدَتهم ظلال أكفهم على رؤية شخص بحجم الإصبع، مقسوماً بخط أسود، إذ تنحني التِلال البعيدة ابتداءً من كتفيه على شكل نخلة تُرابية. تقول هاجر: إنه يَسقُط. وتقول زهور: إنه في وضع الكمين.. عُودوا إلى البيت.. نجحنا.. حقيقة؛ إنه يَسقُط بعدما تلمَّس الإبزيم. هاجر التي تعرفه عندما يتلمس الإبزيم وينهار مع انزلاق الحِزام.

يرفَع بَصَره فيَرى جلستها المُلتاعة؛ وضْع الابتهال والنجدة وقد سقط آخرها مثل كرسي مُحَطَّم. فكّها الهلالي. الجِلد المُلتصِق بالجَوف. مخالبها التي تَقَدَّسَت كخطوط في رقيم طيني لكي تُخلّد لحظة الاحتضار قبل أن تُسلم نفسها لذباب التفسخ، وهو يسمع نجدتها قادمة من أقصى العصور حتى ساعة القيامة. صرخة صادرة عن أسفل القَصبة الهوائية. وكان قد ضَرَب المقود بحركة تنم عن خسارة، وظَل جالساً لبرهة يُحدق بوضع مائل إلى الظلام، في الظلام. نظره مُغَمّماً، إلى الفراغ حيث مكان الجُرف. فلو رفع يده لأضاعَ السيارة. فصَعَدَت شتائمه ضد الإنكليز صانعي العجلات الهرمة، تلك الشتائم التي تَقتلع الصبار وأشواك القنافذ. والمسافة المقطوعة في ليل البَراري الذي يمط نفسه لكي يَستر الأشواك بغرابة غير جديدة على صياد اعتاد المفاجآت طويلاً حسب معرفته بأسرار سطح الأرض. فقال الابن:"ماذا نفعل؟" وقال: ماذا أفعل؟. فأجابه الأب:"أعتقد بأننا سنعود مشياً..". والقرية بعيدة. "قد نخاف من الذئاب". وقد لا نخاف من الذئاب. و"ربما نتيه". وربما لا نتيه. وبَحثَ تحت المقعد عن كيس الخرطوش فقال الابن:"لا تُتعِب نفسك. سمعتُ صوت سقوطه غير أنني انشغلتُ بالأرنب المذبوح". فهتف الأب: لاه!! خسارة..". يقول وهو يحتاج الآن إلى النوم وليس إلى الإغماء، ويسمع صدى تلك الكلمة تملأ البريّة وتمتد إلى ما وراء الجبل:"خسارة.. خسارة..".. خسا.. ثم غَطَس في الشَخير... وهما يتبادلان الحروف الأولى من اسميهما: خ. خ. خ. خسارة...

كان قد ألصق خده آنذاك بالحديد البارد مُولياً وجهه صوب هواء تشرين، مفكراً باعتقادات قديمة، غابراً... غابراً جداً. لم يكن أيّ شيء يعنيه من هذا العالم لذلك يتعلم بطيئاً. فأراد أن يَمنَح ابنه بعض القسوة لأجل سلّم الرجولة الوعِر، ولكي يعرف قبل الوقت ما لم يعرفه هو. وجهه في الظلام. بصره مُغَمّماً. يكشف ذلك الوجه عن آبار عميقة حفرها، وبَشَر يكابدون الصعود نحو عادة التدخين والشاي بعد الطعام. كان يعرف أنه كان محسوب على البَشَر ويُؤثر بالذين يلتقونه صِدفة فيُصبحون حميمين. ولابد أنه فكر أيضاً بما أعطاه من أهمية لهوى الصيد لحظة الخلوة. فمنذ سنوات وهو يحب الصيد. الصيد وليس القَتل أبداً. أقول: إنه مُجَرَّد انطباع وفق طريقة؛ املأ الفراغات التالية...، لكي تصير هذه الرواية أكبر حجماً. لأنني لا أعرف محموداً معرفة دقيقة كما لا أعرفُ شاهيناً ولا عالية ولا هاجر ولا عواداً.. لا أعرفُ أي واحد منهم تقريباً..

حين هبط المساء العالي فوق أنوف التِلال، ضَبَّط عواد حزم أمتعته في إحدى عربات القطار على بعد ثلاثين ميلاً عن القرية، متوجهاً صوب العاصمة، حيث تأتي من هناك رائحة الألوان وأخبار المَعارِض ونجاحات بعض المغمورين.

لقد أصبح، بعد أيام الانكسار، وحيداً يَهتدي بروائح الأصباغ حتى وضع خاص منبثق عن أمانٍ سابقة واحتمالات غضب تحولت بالتدريج إلى هواية باردة.

كان الانكسار الأخير يدفعه لمواجهة اللوحة بعد الوقوف ساعات طويلة، يُعد مكاناً مناسباً، مثل دجاجة تستعد للبيض، بين عشرات الأسماء الشهيرة، لأن عزيزة لم تعُد قادرة على عذاباته بها، وهو تبرير ملائم لأجل البحث عن امرأة أخرى مع الاعتراف بوجود الرفض تجاه كل جنس مغاير لجنسه. لكن الوقت كان ضيقاً دون أن يلجأ إلى الإحراق. يُنصِت إلى صَفير القطار عندما يُمزّق هواء المحطة. ويرى تمايل الشجيرات النظيفة مُوسعاً مساحة الغبطة بينه وبين الأشياء حتى

صعوبة التمييز بين شرائط الحديد وساعة المبنى القديم كإشارة إلى كثافة الوقت المتغير من ضباب الصباح إلى حرارة ما بعد الظُهر، وهو يعرف أن من أصعب الأمور أن يُكوّن الإنسان فكرة محددة عن الأشياء حين يعتبرها الآخرون زمناً مضى بلا أهمية، وقد اعتبره أحد العوامل في سقوطه تجاه عزيزة حين رآها قبل أيام، بعد عامين من القطيعة، وقد أصبحَت أكثر بهاءً ونُدرةَ وشجاعة في النظر إلى وجهه مباشرةً، فخمن أنها بعيدة عن استثمار رَجل غريب.

وهكذا كانت غامضة بحجة زوال الرقيب رغم إعلانها. تغوص في أسرار تَخُص غيره لأن وقع الخسارة كان يَخُصّه، وقد حذف الأمر بسرعة أمام الصديق شاهين كجزء من عوامل تَعَلّمَها لتَعقيل نفسه عند مجيء لحظات الغضب. فكان يقول لنفسه: انظر إلى عينيها.. انظر!!. ويقول: يجب أن أنظر في عينيها. ويقول: هاتان العينان!..

وبعد الهبوط إلى واقعية الاحتمالات السابقة عندما حدثت أثر سنين التهيؤ للانتقال إلى النسيان. عَرَف بعد نزوله. هو. صاحب اللعنة السوداء، ويقولون أنها نظّارة سوداء. ومن خِلال رؤية مسدسه. لعلها قالت له:"أنهيتُ علاقتي بعواد لأنه مُرتِفع عني كثيراً وأشعُر بأنني صغيرة، وكيف تريدني أن أقول؛ نعم أرغب أن أكون صغيرة. فلا أقدِر أن أُقدِّم له سوى الفِراش البارد، حتى أنني لا أُجيد صنع الطعام باستثناء سلق البيض.." وهي لا تقدر كما تعتقد، ولكنه يرى أنها قادِرة، ليس لأنها جميلة بل لأنها تستطيع أن تكون جميلة باستمرار. وتقول:"وهو ذلك العواد بحزنه الذي لا يُباح لأحد، وانفعالاته المُتبدلة.. لا أقدر.". وعَلِمَ بعد هذا التصريح أن قرار السفر بالقطار جاء مناسِباً بعد أن قرأ عِبارة تقول:"لم تَعُد، ولن تعود أبداً تلك المعبودة التي جاءت إليّ. حقاً، لقد بكيتُ في هذه المَرة أكثر من جميع أطفال العالم." وكذلك بعد ذِهابه إلى الدُكّان ورؤيتها وهي تمُر بصُحبَته، ذلك الذي لا يَشعُر بوقفة الرسامين قرب الدُكّان، ويقول عِبر نظارته السوداء:"ما هذه الشَخبَطَة؟" ويَقصد الرسم. وهناك رجل آخر يختبر ذكاء الآخرين قُرب الدُكّان كأنما وضَعَ نفسه قَسراً في كيس لأنه يَحمِل كرشه ليل نهار حيثما يَذهب، ويقول: كيف تستطيع حَمل نهديها إلى الأعلى بتلك الطريقة العدائية؟. ويقصد عزيزة.

رآها تَحمِل حقيبة بيضاء بحيث تُلائم لون القميص. وتلك التي سَمّاها شَهامة بينه وبين نفسه لكي يُدربها على نوع من الرياضة العاطفية، على أساس أنه مُنقلِب عن مفاهيم الآخرين ويفكر بطريقة مختلفة. رآها من مشغله تجتاز القنطرة بنوع من الإعجاز والفرح وكأنها ابتعدت عنه بما يسمح لها بالضحك الحُر، وقد نَسيت جميع الطرائف التي قررت أن تحكيها للنظارة السوداء في أول اللقاء كي لا تَذهب في لجة الحديث عن مَتاعب البيت والطبخ والكَنس وغسل الصحون ومسك سجلات أبيها فتضيع بين الأرقام والأوزان ثم تقول له:"ولكنني ضائعة.. ربما لن أتزوج".

مَرَّ وقت كاف لتفتيت تلك الثقة تدريجياً، ورغم ذلك وحتى في بداياته، لم يَعتبر إهداء زَهرة لها بديلاً عن القُبلَة. ورغم ذلك أيضاً، لم يُقبلها...

كانت الرغبة المُطفأة تبدأ منه لحظة مُلاقاتها وهي تهتز أمامه بشهوة تأتي من الخارج مُعاكِسة للخوف، تأتي من مكان بعيد تقريباً، من غيمة عابرة، أو من شيء صلب كالحاضر الذي يَنطق فيه اسمها فيتحوّل إلى ماضٍ فجأة بعدما ينتهي من نطقه. بينما كان ضوء الجمر يَدبّ على جسدها المدهون بعبق الأنثى البشرية، وهي تغوص في وَبَر القَطيفة وتَنظر إليه خائفة بطرف عينها، نظرتها تقول اقترب أيها البعيد. ويمد يديه فلا تَصِلان..

إنه لَمن العسير أن يَتخيّل الآن أية حِكمة اتبَعَها لإيصال العاطفة على شكل المُعادلة الحسابية، فلا يستطيع أن يفعل شيئاً سوى الإنكار، لأنه يُضيّع بذلك سحر الكلمات ومقدرتها على وضع المقابل في منطقة القتل. لقد كَرَّس ساعات الرضا القليلة بالانصراف لإعداد كلمات الهدنة كلما وَجَدت أن من الأفضل إعطائه فرصة جديدة للتخلي عن تأملاته، باختراع معركة معينة، وهو يرحب أحياناً بمثل هذه المعارك الغالية. وكانت وسيلتها الوحيدة في تطويعه ـ وهي نعرف مقدماً عدم جدوى الوسائل معه ـ أن تجعله ينتظرها لساعات طويلة، إذ تقول:"سآتيكَ بعد لحظة فانتظرني.".

وكانت لحظاتها شبيهة بلحظات الله من حيث الامتداد، كأنها تَطمئن إلى رسوخ عاطفته وتَعلَم بأنه لن يغضب وقد تَرَكَته على سطح بيت مهجور في مكان لصيق بمياه النهر، يُنَصِّف ظَهره ظِل قضيب الشُباك، ويلمس جحيم الشمس في يوم تموزي أحمر.

حَدَثَ ذلك بين عَربتين حين جاءته الألوان مثل ومضات البرق. وهَزَّته العَربة في وضع الابتسام. وأغلقَ باب القطار في محاولة للنوم، غير أنه تَذكّر مسدسه وهو ينزل ماضياً بها إلى القنطرة، وهي تقيس اتساع ابتسامتها في زجاج نظارته السوداء. شَعَر بحاجة إلى الأزقة، وكلها معروفة من خلال نهاياتها.

القرية؛ مأوى الوَجَع الكبير، شكلها القديم الهادئ، أشجارها المُعادية. أشجار مُعَيَّنَة في مكان مُعَيَّن. سَواقٍ محفوفة بجذوع. وقد دَحرَج بعض الأصدقاء علبة بمثابة كُرة قَدَم.

ورآه يَحمِل المسدس تحت قميص بلون الطين، وهو يعرف، تقريباً، عُمر هذا القميص. قيل أنه قال:"يجب أن أُسدِل القميص فوق السروال لكي لا يَظهَر هذا، إنه لأمر يستدعي التضحية بالأناقة.". أما هذا، فيعني المسدس.

يَنظر إلى وجهه في زجاج القطار: إنكَ في وضع أفضل. مَن المتحدث؟. أنا عوّاد، وأنتَ؟. رشفة واحدة لكي تحس بالعزاء. رشفة أخرى. أخرى. مُرَّة هذه البيرة فكيف يشربونها؟. أخبرني ما الذي تَبَدَّل هناك؟ ما الذي تَبدَّل فيكَ.. أنت.

هل تُراك شِخت؟ تلك المرأة المُتعِبة، البريئة، الساقطة.. رشفة أخرى. مُرَّة هذه البيرة فكيف... إنني أُقدر إحساسك بها الآن وأنت تُقدم لي السجائر لكي تُخفي تركيزي في عينيك.. .. ..

بعد قليل سأفهم هذا الضوء، لا تتعجل، هل نجحتُ كما ترى؟ هل نجحَتْ هيَ؟.. فإن نجح أحدنا لابد أن يفشل الآخر. ومَن الذي فشل؟. اسمع؛ يجب أن تذهب وحدك.. وحدك، ولكن لا تنسَ تحياتي لها.

أريد أن تعرف بأنني كنت معك.. وامتنعتُ عن الحضور لكي لا أجلب لها الإرباك. قل لها أنني كنت أشرب البيرة. قل لها إنني رأيته يشرب البيرة. شَوّه صورتي المُقَدَّسَة... يا أخي، خُذ سيجارة مِن هنا، لا فرق مِن هنا، خُذ. هل نتصارح؟.. ... رشفة أخرى.. يا للمرارة. اعترف لك بأنها علّمتني ما لا أستطيع تعلمه بمفردي، ولكنني أستَخسِر ضياع تلك الجهود... لأنها لم تَجن شيئاً. أنا تغيَّرتُ وهي هاربة دائماً.

هذه المرأة، بصراحة تامة، إما أن تتزوج من رَجل أبله أو تنتهي بفضيحة.. خسارة. قلتَ لي أنها تَشعر بالتَعَب والندم حول مسألة فقداني، أعرف ذلك.

كانت تُريد أن تعطيني قلبها مثلما تُقدِّم تفاحة ناضجة... للأسف، لا أريد هذا. أعني لا أريد أن تمنحني بسهولة.. آه ذلك الخيط.. لقد وضعتُ اللائمة عليها. قلت أنها لا تفهم. لقد فاتني أن كل إشارة منها، تلك الإشارات التي تمتاز بها، والتي حَبَّبَتها أكثر.. بحد ذاتها..

هنا نصل في القلب مباشرة.. هنا وليس هناك في الزجاج. تكلم يا أخي ولا تنظر إليّ باتهام هكذا.. تَكلّم تكلّم.. ..

لحظة العبور، عندما وصل القطار إلى محطة أخرى، وهي واحدة من محطات كثيرة في طريق العاصمة. المكان مُقفَل بالبَشَر. ثمة أجساد لائذة بظلال الأكشاك. كان باعة السجائر خلف صناديقهم: روثمان يا وَلَد. سومَر يا وَلَد. بغداد يا وَلَد. وصيحات أخرى: سندويج، عصير... إلخ.

فَكَّر بأن الوقت يسمح له بالذهاب إلى حديقة المحطة لأجل التقيؤ تحت الشجرة وغسل رأسه بالماء.

قَعَدَ على العشب وهو يرى أعالي الأشجار السوداء، واعياً خَدَره. لحظات من الذكرى الهادئة. عشب المحطة اللدن، سِر غريب تفضحه الأعمدة وقشور الكَرَز: لم يكن صدرها يحمِل حُباً، وإنما سِلاً رؤياً. واقتَرَب وجهها المُشفِق. وجه عزيزة. يبتسم لهذا الوجه الخاص عندما يسمع صافِرة القطار..

وفي نفس اللحظات التي ينام فيها البعض يستيقظ البعض الآخر. تلك السلسلة مِن البَشَر. كل فرد، هذه اللحظة بالذات يفعل ما يفعله فرد آخر في أية بقعة من الأرض، ولذلك فإن السلسلة تخصهما؛ ينام عوّاد لكي يستيقظ شاهين فيجد حوله الظلمة، ما من شيء يَنتصِب، ما من شيء يَهتز.

يسمع أصواتاً قريبة؛ شَمشَمَة، تنَفُّساً مُرتفِعاً...

يهبط في أحد أصابع الوادي لكي لا يُضيِّع طريق العودة. كان العواء حوله يثقب السواد مُلتاعاً مُعبِّراً عن الجوع. يسمع باب السيارة المقلوبة يَنصَفِق. باب تلك السيارة الشَغولة في براري الأرانب البريّة آنذاك، فيطلُع الأب من الحُفرة مُتحدياً العيون الفسفورية، إلا أن الابن لم يكن يملك تفسيراً لجنون الكبار، ولن يصل إلى التفسير تقريباً.

قال الأب:"أرأيتَ... الذئب؟". "الذئب؟! لا لا..". كان يبدو غير مبالٍ وهو يقول:" منذ ساعة يُلاحِق السيارة". "وقد لا يكون الذئب نفسه فالبريّة مليئة بالذئاب يا أبي". "أنت لا تعرف هذا النوع من الضواري".

سمع نفس العواء الذي سمعه قبل عشرين عاماً بين منابت الأشواك التي بدت أثناء النهار خالية من أصغر الحَشرات. يتساءل شاهين عن معنى أن يكون المرء خائفاً آنذاك؟ يتساءل: كيف كنت أحس بالخوف؟.. ما هو الخوف؟.

يعني أنه تَلَمَّس قلبه، وتَعَثَّر بالصخور، وأراد أن يبكي، وتَمَسَّك بقميص أبيه، وأراد أن يصل البيت بقفزة واحدة. هذا هو الخوف القديم.

إنه يُحِب أن يخاف الآن، يتمنى لو يرتجف مثلما فعل قبل عشرين عاماً. يُنصِت إلى العواء فيفشَل.

ويحمِل البندقية بمثابة عصا، ثم يسأل: هل يقدر الذئب أن يقاتِل شخصين؟. فيجيئه الصوت من مكان مُعيّن:"بل يُقاتِل عشرة بنفس السهولة". ويسأل: أيَستعين بذئاب أخرى؟. فيقول الصوت:"قلّما يَفعَل..". يقول: لماذا؟... مَن يدري..

كان محمود يعرف خوف ابنه فيُخَفِّف:"تذكَّر بأن الذئب خائف مثلك". "لماذا يُهاجِم إذن؟". "الخوف سبب العدوان.". وملأ الفراغ بحداء بدويّ مُتعجباً لصفاء صوته كأنما سمعه لأول مَرة.. ثم قَطع غناءه قائلاً:"هل تَسمع صوتاً؟". فقال الابن:"نعم.. أسمَع صوتك.". "أقصد صوتاً آخر.".

يقول: لا أسمَع..

كان يتظاهر أحياناً بعدم السمع حتى في تلك اللحظات الرهيبة. لحظات العبور في نزهة الجمعة. وكان يَسمَع العواء والحداء معاً كصوت واحد متناغم. ويسأل عن تلك الحيوانات الشرسة، وهي ليست أشرَس من الفراغ الذي يطمس كل شيء، يُلاشيه فلا يشعر بنفسه بدون تلمّس. وهو، هذه الظلمة تمحو مكابدات البَشَر. لحظة عبور العنيف وطيران الأسئلة. القوائم المخلبية آنذاك، فيقول الأب أن الهجوم الأول لا يُؤذي لأنه يستطلِع وسائل دفاع الفريسة، ولا يقصد التحذير أبداً، ولكنه يلتصق أكثر عندما تتضاءل احتكاكات المُهاجِم في سِعَة البريّة. كان يقول له:"لا تَخَف يا بُني.. يا ولَدي". وبذلك يُخيفه أكثر لحظة الذهاب لجلب الماء من الخزان. والخزان بعيد قُرب الباب، بينما صارت المسافة بين أقدامهما والقرية أبعد من قُطبيّ الأرض. تلك الأرض الكروية التي تُؤاخي بين المتضادات. لكن الجميع يعرف أن الرجل الحقيقي هو الذي يحذِف ساعات الخطر الحقيقية ويقترب من القرار بإلغاء صيَغ التعجب في تحجيم الذات. لم يكن ثمة وهن في تلك اللحظة. هناك فقط شيئان؛ عمود الحياة وحُفرة الموت، فلا مَفر من النزع بدون أن يخلع الحِس البَشَري ويُنازله. مخلب بمخلب، فك بفك. ويسأل عن تلك الحيوانات الشرسة، فيسمَع الجواب عِبر الأعوام:"سيهجم من جديد" ويسمع:"أطلبُ منك أن لا تَفزَع". ويسمع:" لا تتحرك بعيداً عني ولكن لا تلتصق بي فتُحِد حركتي". ويسمع:"هات البندقية" ويسأل عن تلك الحيوانات الشرسة فتجيبه بهجوم مباغت، ويغمض عينيه بانتظار الأمر الواقع. ويسمع:"عووو عوووو...وو"..

ويسمعان معاً ذلك العواء فيصرَخ الأب:"لم أقتله". ويجيء العواء من كل الجهات. فيقول الأب:"إن لم نمت الآن فسوف نعيش طويلاً". "وأنت؟". "المهم أنت.. لست بخائف، وأنت؟".

ساروا مسافة قليلة في الاتجاه المُفتَرَض فسأل الابن:"ولكن لماذا يعوي؟" فرد عليه الأب:"لماذا تبكي عندما أضربك؟". وتَلَمّسَ الأرض باحثاً عن حَجَر فلم يجد. وقف آنذاك تلك الوقفة المستسلمة الشجاعة، وجهه إلى السماء. ثم أخرَجَ علبة الدخان وأمَرَه أن يُراقِب المحيط ريثما يُشعل سيجارة. كان يتأمل نار العود بأمان وينظر إلى وجه ابنه الشبيه بالقناع، ويقول أنه يحتاج إلى نار كبيرة عندما اقتَرَب صوت الأقدام قافزاً فوق الأشواك، فدَخَل الابن الصغير بين ساقي الأب الكبير، ولم يقم بأية محاولة لإبعاده. أخرَج حزمة عيدان وحَكَّها فانبجَس الومض منعكساً في تلك العيون المُعادية. ولاحَت له آثار المخالب على الأرض عندما غيَّر خط الهجوم خوفاً من الضوء. ستنتهي العيدان بعد ثلاث محاولات. الطريق طويل. "ألا يوجد أحطاب هنا؟".. أي شيء يشتعل؟.. قش، قماش.." فدفعه برفق مُنتزعاً قميصه. واقتَرَب فدَفَعه بقوة ثم طوى القميص على شكل فتيل وأشعله.. وتَبَدد الظلام.

يقول أنه شهد هزيمة الظلام. ويقولون أنهم أبصروا اللهب في البريّة. ويقول أنه نظر إلى وجه ولده وابتسم ليحثه على الهرولة.

وبعد أن قَطعا مسافة مناسبة، قَطعت النار نصف الفتيل، فسأل الابن:"لن يُهاجمنا مرة أخرى.. أيه؟". وضحك الأب حتى لسعته النار فرمى الشعلة...

يقول أنه كان ينظر بأسف إلى انتهاء النار. ثم ينظر إلى أبيه كيف ينزَع سرواله ويطويه على شكل فتيل ويقبس. قال الابن:"يوه... صِرتَ عارياً". وهز الأب رأسه مبتسماً.

لم يكن قد رأى مرة ذلك العري. الجسد مُحاصَر بالليل. الجسد القديم مرة بعد مرة. تلك النتوءات، الساقان ـ ساقاه وراء الظَهر!! (...) بين الساقين كعروة تهتز مُضاءة في ألم العلب المُلونَة تحت العمامة والكلمات التركية والمخَدّة، البَهجة، الواقفون... الصدر العريض المُشعِر ـ الدغل. غِبطة مَرهونة بتخديش المخالب المُعادية. عار لا يتبدد عند الحافة لأن القفز ممنوع. وهي، تلك الحفرة، ظلمة زرقاء شاحبة... فيسمع أصواتاً إنسانية ويهتف: وصلنا!. ويتسلق كتف الوادي فتَظهَر النوافذ مُضاءة. الأشجار السوداء تَحُك نفسها للتخلص من بعض أوراقها الميتة وهي تتحنى لكي تمنع انقلاب التِلال.

تمكن أن يرى آثار أظلاف الماعز في بقع الضياء، والبئر مُحاصَراً بالشوك والصخور المُحَزَّزَة عند نهاية طحالب مجاري الصابون.

رأى أكياساً سوداء حين تسلق بوضع مائل، فناداه أحد الأكياس: مَن هناك؟ شاهين؟. وتَدَحرَجَت الأكياس فتحوّلت إلى عجائز أحطن به وسألنه عن عدد الأرانب التي اصطادها.

اقترب أحد الظلال واحتضنه ثم سأله: أين البندقية.. والحِزام؟!. فقال منزعجاً: آه.. حقاً أين البندقية والحِزام؟. وصعد النقيق مُجدَّداً ثم تَفَرَّقَت الأكياس في الوديان...

كان شعبان يمد ساقيه فوق العتبة لينتظر عودة شاهين الذي اجتازه بخطوة واسعة، ماضياً نحو ظلمة السلّم.

أما هاجر فقد تعَثَّرت لحظة الاجتياز وكَفَرَت. يوه.. مَن الذي وضع هذه الأخشاب هنا؟. فأجابتها الأخشاب: أنا شعبان.. عمي يقول جِئني بشاهين. فتبين لها وجهه مشابهاً لكُرة الصوف. قالت: لحظة يا شعبان.. انتظر. وتلاشَت في الظلمة..

عندما فَرَك المُنتظِر يديه فوجئ بشيء صلب قَدَّرَه عصا من خلال رَنة الخشب على رأسه. تَرِنّ وتُؤلم. فتَدَحرَج مع السفح حتى حُطام لعب الأطفال الواخزة في مضيق المجرى. وسَمِعَت عواءه، صوتاً يختلف عن الغناء. وسمِعَت سؤالاً مُتَكسَّراً بسبب درجات السلّم: هل تحملين قِلادة سِن الذئب؟. فتجيب: طبعاً، لماذا؟..

أما حلاّب فكان ينتظر عائماً عِبر روائح الأرضيات المغسولة عصراً، فيقذِف الغطاء ويزيح الستائر عند رأس سريره المُعَد لثلاثة أشخاص، ويُعيد التأكد من دِقة الإجراءات منذ الجلوس

الأخير للشمس على أغصان شجرة التوت. يأمل، في لحظات قبل القيامة، برؤية فَرخ الصياد محتاراً بين تعدد الغرف وسِعَة الممرات، لعلّ الرَهبَة تأخذه فيعود إلى غَطسَتِه بعد النظرة القريبة للبيت الواقف على قوائم جصيّة، بمنادياته الشبيهة بشواهد القبور، حَسب العُرف، إنها تنادي الضيف، إذا ما استثنينا تفجّر الضوء وتمدده في أقاصي الدروب. يعد الغرف فيُخطئ الحساب. يعدها من جديد: ثلاث إلى اليمين، ثلاث في نهاية الممر، اثنتان على السطح، واحدة إلى اليسار، ماعدا المَضيف والقبو والمِرآب والزرائب في أقصى الفناء.. ثم أسيجة الآس وحشائش المَدخَل الصناعية.

لكل زوجة ثلاث غرف تنتهي جميعاً بِسِعة المطبخ. الملائكة تدخُل حيث لا تجد صورة مُحَرَّمَة على الجدران فترتد، وإنما تنجذب لحدوة الحصان وحِذاء الطفل ورأس ذكَر الغزال محشواً بالتِبن وملفوف القرنين بورق الفضة وقد أُثقِل بقلائد مختلفة من الوَدَع والخَرَز النادِر. أما المدخَل فيُضاء بسراج مُستَورَد، يُوَزع الدخان والنور بتساوٍ عجيب، وترتمي إلى جانبه حُزمَة عيدان تُستَخدَم لتنظيف الأسنان بعد وجبات الثريد.

كانت الصراصير الحمراء تجتمع من كل صدع مُستأنِسة بضوء السراج. وهي تسليته الوحيدة في ليلي الأرق، حيث يقتل وقته بنداءات تشجيع وتصفيق لصاحب الغلبة من أصناف الزواحف وأبي بريص، ويتمنى بصوت مرتفع يهز نوافذ البيوت القريبة من بيته، أن يغلب أحد الزواحف فتهرب الباقية بعدما يصير سيد دائرة الضوء أمام زاحفة أصغر حجماً لأنها أنثى معجبة بقوة بعلها، هازَّة ذيلها الإبريّ كإصبع يشير: اقترب يا حبيبي..

وهو ولوع بالسكاكين وأصناف الآلات الحادة، كشفرات الحلاقة والمقصات، لأنها ذوات فضل كبير في رؤيته للنور، بعد تلك الصرخة التي أسمعت التائهين. حيث قامت إحدى العجائز بفتح قُبتيه بواسطة سكين البصل المُحَمّى، فتحوّلتا إلى مجرد جرحين قادرين على بعض الإبصار. وقد أثَّرَت تلك الرؤية الأولى على فهمه للأشياء فيما بعد. وكَتَبَ عنه صحفي زار القرية، افتتاحية ضخمة لإحدى صحف الغَرب.

يقولون أنه كان مُنزعجاً من الكلب الذي يُنابح سيارته كلما خرج للتبرّز في البريّة، وقد روى لهم تفاصيل المقلب، بعد ركض الكلب حذاء السيارة، إذ أمسَك بذيله، وضغَط قدمه على عَتَلَة الوقود.. فأخذ المسكين يعوي، حتى اختفَت القرية خلف سحابة الغبار، عند ذاك، تركه يعود ماشياً بعدما تَجَرَّحَت بطنه، وأقسم في قراره أن لا يراكِض سيارة بعد اليوم "خاصة إذا كانت زرقاء مثل سيارتي..".

ما مِن أحد يفهم هذا الرجل سوى الصياد الفقيد، وزوجته الكبيرة التي عاصرت تحولاته المختلفة، وقد أخذها بعد تجربة مُساوَمة، لا بسبب قصة حُب، لأن أباها كان مَديناً له بكيس قطن. فاحتملَت رفساته طوال سنوات الأرق، وهو يُقوّس جثته باتجاه الأرض ويُداعِب لحيته الشبيهة بالضَماد الأسود. وهي تمضي الليالي منتشية مع غضبه، تُحمِّص قهوته على الجمر، وتحتمل قفزه وصراخه المُشَجِّع لبي بريص، وقنوطه في حال خسارة الزاحف أمام الصراصير الحمر بنتيجة: واحد - صِفر. بعد أن يبصق، فيسيل بصاقه قطراً نصفاً لدائرة الضوء.

عندما دخل شعبان مُكَدَّمَاً، تراجع في عتمة الممر، فقص له ما حدث قائلاً: الجواب أمام عينيك يا عمي. فما كان منه إلا أن يُرسِل أشد الرجال لجلب فَرخ الصياد بالقوة، بعد أن حاصَر أنوار البيت ببعض قِطَع الكارتون.

لم تُجدِ محاولات هاجر في منعهم من الدخول لأنهم هدَّدوها بكَسر الباب.

سمع شاهين جلبة فنزَل يسأل عن المَصدَر، فحملوه على أذرعهم القوية باتجاه أعشاب المَدخَل الصناعية. فقال أحدهم: هذا هو يا عمي. ورد شاهين: نعم، هذا هو يا عمي. وسمعَ ضحكة فَحيحيَّة رفيعة وكلمة: هاتُوه. ثم: لا، ليس الآن، قولوا له بأنني غير موجود. يقول شاهين: آه.. ملعون! أليسَ هذا صوتك؟ لماذا تجلس في الظلمة، هل أنتَ خائف مني مثلاً؟. وأتَته صَفعَة قوية مع: تأدَّب يا ولَد. فرد: نعم تأدَّب يا ولَد. قال الصوت: هاتُوه الآن. فأدخَلوه إلى عتمة الممر، ظلَّت هاجر

تَحُك رأسها بعصبية، وتُؤجل قرار لِبس الحِداد مُجَدَّداً، دون أن تعرف ماذا يتوجب عليها فعله بالضبط؟ فتَلَمَّسَت عصاها وزَمَّت شفتيها في الباب، ثم تراجعَت نحو السلّم مأخوذة بأسئلة التردد: هل أذهَب؟ أم أتركه؟. وفكَّرَت بضرورة الحصول على الدليل الذي لا يُؤجل قرار الانتقام، وفق انتظام نتائج بعض الوقائع التي تؤكد بأن اختفاء زوجها قبل عشرين عاماً، كان فَخاً مُدبَّراً، لأنه كان قادراً على صفع المُتجاوِز في حفلة الغجر، أمام الجميع، حيث اهتزت نورية. "يا أهل القرية، رحم السامع منكم.. مَتَّعوا أبصاركم..". في باحة البيت الجصيّ امتزجَت قَرقَعة القدور بقرقعة أصابع الغجري على الطَبلة، مرة ينحني ومرة ينام حتى صارت أصابع خمسين في كل كف. متبوعة بمواء ربابة الصفيح، والصوت الخارج من عنق الغجرية المدهون. والخِرفان الثلاثة تَغلي بأمعائها، محروسة خشية سقوط الأطفال نظراً لسعة القِدر وسعة فتحة الثوب أحياناً، لأن العيون تتسع معها عندما يلمَع الفخذ، وتصعَد قلوب المُشاهدين خارج صدورهم ثم تحُط ثانية و"وصلة غنائية اذكُري فيها اسم حلاّب.. خمسة دنانير بين نهديكِ"، وطَلَقات تحذير لحظة دخول المُهاب، الذي رَفَع حلاباً من جلبابه:"أعطِ المسكين حقه". فيزعَق:"ليس هذا وقت حساب يا أبا شاهين.. نريد أن نتونَّس يا أخي".. ويضَع البندقية على عنقه:"سأجعلكَ تتونَّس في الجحيم.. هيا". فيسحب دنانيره من بين النهدين ويدفعها لصاحب الحق.

تقول: هل أذهَب؟ أم لا أذهَب؟.

يصرخ شاهين: ادفَعوا هذا السواد لأرى مكان الخُفَّين. إنه يسمعهما يَحُكان الأرض ويدوران في فراغ الظلمة.

شَعَرَت عزيزة بأنها مربوطة بوَتَد حيث كوخ التِبن. وهي لا تستطيع الجزم، بأن عواداً سيأتي ويعقف ظَهره لحظة الاقتراب فيقذف نفسه إلى الداخل بسرعة ويمكث.

لا تدري إن كانت قد أعطته موعداً، بإشارة أو كلمة، لأنها لا تذكُر بالتحديد أية كلمة!.. غير أن المكان أكيد؛ كوخ التِبن، منعزل في الطَرَف. مكان مُلائم لتبادل الاتهام والحُب. فوَسَّعَت عينيها حتى لحظة الألفة. ثم أضاءت الثقاب لترى وطواطاً مُعلَّقاً بنبتة قنّب موصولة بين عمودين يرفعان السقف.

لم يأتِ، حين انطفأ العود، ولم يأتِ بعد انطفاء العود الآخر. ربما جاء قبل الوقت فلم يجدها. وأضاءت عوداً آخر، فكان التِبن يعلو ليُلامِس السقف أقصى الكوخ، ويهبط حتى يكاد أن يتلاشى عند الباب. اقتَرَب شَبَح، فاشتاقت إلى حرائق الألوان. ومَيَّزَت حفيف جلبابه، وهي تسعل سعالاً كاذباً. اختَضَّت عندما رمى نفسه، كأنما انقَلَب جوفها، فنادته: أسرع.. انتظِر. وشَمّ في جدائلها رائحة مزيج من السِدر والروث والحِناء. انتظِر. ذهبت إلى مواعيد نفش قُطن الوسائد حيث تُغلِق أنفها وتعطِس. أغراها الدفء بالمكوث بلا أمل بعد نهار نظيف تلبَّد فيه غبار أرجُل القطعان العائدة، وغصَّت نوافذ القرية. وأنزلَت الأكياس بمثابة ستائر، فصاح شاهين من الأقصى: ادفعوا هذا السواد. وأخرجَت رأسها من باب الكوخ لتَسمَع نباحاً وأصوات إذاعات، لأن الليل لم يَعبُر نصفه الأول. وجلسات القرويين تُطاول محاولات البَق بالانتحار قرب مصادر الضوء، رغم نهار شاق قضوه. وهي تخشى فوانيسهم التي قد تُداهمها فجأة، بحثاً عن دجاجة ضائعة.. وتتراجَع إلى الزاوية.

أشعلَت هاجر عوداً ثالثاً، فرأت أنها تُمسِك، منذ الغروب، قلادة سِن الذئب. بعدما دَفَعَت إليه بعض الطعام. وكيف ينام الجائع؟. ولكنه أبعَد الصحن، ثم تركَ شَعر رأسه وذقنه لعَبَث الهواء، وأسلم ساعديه للبَق خارج الشبُاك، ينظر إلى صف التين ذاوياً عند سطح المنزل. كان يأمل بذهاب الأشعة خلف منزل حلاّب، متيقناً بأن القطعان ستَشبَع قبل الغروب فتعود عبر الدروب الضيقة، وهو وقت يسمح بمُعايَنَة خَرَز السبْحَة. كان حزيناً مُتورم القلب. ربما كان مُتعاطفاً مع الهراوة والبندقية والسكين، وربما واقفاً في الباب بعد هجوم الذئب، حيث تَمُر الليلة الأولى بلا نتيجة مفيدة. فيبحث ببصره، وهو مُحاط بزوايا الحائط، عن وقفة رشيقة وجريح يعوي. نَفَخَت اللهب لأنها لا تريد الضوء الآن.

"أريد أن آكلكِ يا ضفدعة". فلم تفهم عزيزة... وانسَحَبَت إلى الوراء، كأن يداً تجرها من ثقب، وهي تذكُر كيف تَوَسَّدَت بطنه في الظل خائفة، لا تدري.
جاءت لأجل اللحظة، فلتذهَب الذكريات إلى حيث... يقول: سأخرُج يا عزيزة. تقول: أرجوك لا تتركني وحدي. ويقترب عندما يثقبه التَوسل. يقترب بحدود امتداد الذراع حتى يُلامِس خيط الرقبة. وتنظر باتجاهه فلا تُبصِره لأن الظلام على وجهه. وسَحَبَت طرف الثوب لتُخفي ساقها في الظلام. يقول: لماذا تَضحكين.. ها؟. وتقول: أوه.. لا أستطيع.
ويصيح شاهين: ادفَعوا عني هذا السواد لأرى... بينما ظلّت هاجر تَحُك رأسها بعصبية. جاء قبل ظُهر النهار التالي ونام حتى العصر.. ثم استيقظ على صوت المذياع. ودار حول مخزَن الحَطَب عشر مرات. واستنشق الدخان بعمق قبل أن يشرَب طاسَة اللبَن. أعدَّت له الحَمّام وأدوات الحلاقة، غير أنه انحدَر مع الماء الزائد. ونَقَلَ الرُعاة عنه، آنذاك، بأنه لا يَرغَب بمُلاطَفة أحد كما كان يفعَل، ولا يَرُد تحيات النسوة عند البئر كما كان يفعل. لعله يُعاني مشكلة تخص الضوء، فلم ينقطع عن العطاس لأنه لم ينقطع عن مُراقبة نزول الشمس. وقبل حُلول الليل نظر إليها نظرة غريبة ثم خَرَج...
وصاح شاهين: ادفَعوا عني هذا السواد لأرى. فلم يُجبه أحد غير احتكاك الخُفين بالأرض. وسؤال بسيط: ١ + ١ كَم يُساوي؟. ويصرخ: لن أُجيب حتى أرى.. هه. وتنطلق الضحكة الفحيحة الرفيعة، تهز أعمدة العتمة. أما الخُفان فيُثيرانه باحتكاكهما في قاعة أو فضاء، لا يدري.
هاجر مُضطَربة لتأخُره؛ أتذهَب؟ أم تنتظِر الدليل؟. تذكُر أنها كانت تُراقب تسلُق الدرب، ففاجأتها ساق تَدفَع الباب وتضحك عالياً.. ورأته يقف بطول قامته التام وسط غرفة الجلوس. ويُلقي ثُقلاً عن كتفه، فصاحَت:"هاه!! كلب مَيّت!". فازداد ضحكه حتى السقوط ومُعانقة الجثة. ثم قال بهدوء:"إنه ذئب يا بَطة، بل الذئب.. انظُري إليه..". كان رشيقاً بملامح شرسة مُدَبَّبة، وعينين غائبتين. كان مُصاباً تحت أذنه برَشقَة من حَصى الخرطوش. قال:"خُذي أنيابه وسَوي منها قلادة. أريد الطعام والحَمّام وأدوات الحلاقة.. بسرعة". وتقول: هذه هي القلادة. راح يضحك...
وتضحك عزيزة فيسألها: لمَ تضحكين.. ها؟.
فتقول: أوه.. لا أستطيع. ثم تستطلِع البيئة: لم يأتِ إلى الموعِد.. الكلب.
يعود الإحساس بجَذب اليد الخفيّة، فتُقرر دفع ذراعها لإبعاد تلك اليد. تتوَسّل: مَهلاً.. امتلأ شَعري تِبناً.
وتموت الأصوات خارج الكوخ، وتبقى وحيدة على سطح الأرض، واقفة وقوف حصاة مقذوفة في الفضاء، عند نهاية الصعود وبداية الهبوط...
تعتقد بأنه سألها: أين بيتكم؟. فأجابته ضاحكة: بيتنا؟! ألا تعرف؟ هناك، حيث تجد حماراً مربوطاً بشجرة، وإلى يسارك لافتة تقول؛ بيت القابلة أم وليد...
وتتمطى على التِبن بعدما تألف وخزه، ثم تُسنِد رأسها على كتفه وترغب بالبكاء، لأنها تحب البكاء أحياناً. وتشعُر بالدَم الدافئ يُحرك الرغبة...
تسأله: متى نتزوج؟. فيُجيب: الآن إذا شِئتِ. وتنسى البكاء لتسأله من جديد: متى نتزوج؟.. انتظِر، سأقول لكَ أنا.. ايه... عندما تنتهي اللوحة. فيدفعها عنه صارخاً: أية لوحة تَعنين؟. فتقول: ايه... يا عوّاد، لا تَجعَل نفسك غبياً.. يا أخي. ويصرَخ: اللعنة يا عزيزة. ويضربها حتى تَتحطَّم نظارته السوداء...
ويصيح شاهين: ادفَعوا عني هذا السواد لأرى. فلم يُجبه أحد غير صوت احتِكاك الخُفين. ثم سؤال بسيط: مريم ابنة عمران... ما اسم والدها؟. فيقول: لن أُجيب حتى أرى.. هه.
يتوقف الصوت فجأة، وتتوقف الأسئلة، أو تضمَحِل تقريباً. يمد ذراعيه فلا تصِلان. ليس ثمة حائط أو عمود أو خزانة أو جسد أو بقرة.. لا شيء تقريباً. ظلمة. سواد. هوَّة خانقة، لذا فكَّرَ بأن تجربة اليومين الماضيين... أية تجربة؟. فكَّر بأنه ميّت. أين الباب؟ هل مِن سقف لهذا السواد؟ أسئلة ضائعة. يسأل مَن؟ ومَن يُجيب.. .. ..؟.. .. .. ..

كان الصوت يَضمَحِل ـ انتهاء الشاي. يَضمَحِل ـ جَفاف الغدران. يَضمَحِل ـ العُمر... أين عِظام البَشَر؟.
يقول: هذا الظَلام. ويرى الظَلام. الظَلام. انطِفاء الضحك، وَعدٌ بلا إثارة ـ مُجرَّد دعابَة جافَّة تُؤدي إلى ثقوب مُغلَقَة حيث مُستَنقَع البَرد والسُكون. تأتي جميع الصُور والذكريات والأحلام والمخاوف والمشاعر والأفكار في لحظة واحدة واحدة. وتَذهَب اللغة فيَعتَقد بأنه مَيّت ولذلك يصرخ هذه الصرخات لكي يسمع نفسه. ويتأكد بأنه ينطق ويَسمَع. فيقول: هذا الظَلام الحَق المُخيف الجارِح الأسر المُفرَدات ـ تجاوزها.. الصعوبة كانت القوة مرحَلة المَرض في المُفردة الصغيرة يمكن ذلك، عضو من الأعضاء يمكن الاستغناء عنها كالقَلب المكرُوه كما هو مُؤلِم جدير بالقَذف ـ ستبقى دائماً على السطح دائماً دائماً.. دا.. .. إلا إذا كانت الخوارِق شيء كثيف هابط مُمتزج بوجوه الثعالب والأصدقاء ويبقى السِر لحظة أخيرة من النَزع حَرَكة سِكّين الذَبح في باب المَذبَح، باب بابا ـ با... لأجل الألم يقترن بانغِراز الأصابع في فَروة الشَعر لكنها تنشر ولا تخفف لأنها مُباحة دائماً دائماً ـ دا... قلـ... وبـ... عسى... لا... لو... فردا.. دا.. با.. دا تحيات العُمق... داف... .. دابادا... دابادا.
تأتي صُور أخرى. صرخَة بلا حُبُور. وتَذهَب خيوط اللغة: هذا القيّد شكل الرِداء حالة البَشَر ـ الدمعَة اكتشاف حديث. وما هو الرداء ضد الرداء.. ادفَعوا هذا السواد ضد الجَمال نفسه والموت تحوّل الوجه إلى رِداء... رداء... داء... دا...
ليس ثمة بقعَة لمُمارسَة العُري العري والتَجرُّد من اللغة القيد خير دليل على مجيء الغَد هو الراءة قَطرَة عُذرية الرَجُل في ذهن رَجُل آخر صُورة جميلة من صُور التفاني اليائس ـ احتضن البَشَر تحت الشجرة... البَشَر... البَشَر... البـ.. با... سَيلان المُمكن في الجامد كالحديث الجارح عن الرمل والهواء والنَميمَة عن الجبل رفض الفكرة لأجل الآخر الآخرين ـ الآخر.. صرخَة هي إسكات مِن ع حتى أقاصي ك دائرة.. دائرة.. داء.. دا... دابادا... دابادا.
ولكنه نادِراً ما يَصِل إلى الإغماء. يمد ذراعيه فلا تصِلان، إذ ليس ثمة حائط أو خزانة أو عمود أو زَفير.. ويصرخ صَرخَة بلا حُبور ولا صَوت: دابادا.
بينما يضمَحِل حلاّب في موسم الفيضان. أطراف صدى مُتَكَسِّر في أذنيه. يقطَع تنفسه لكي ينزلِق عن خط رسمته التي فَتَحَت عينيه بسكين البصل المُحمّى ويقول: جدّتي ساعديني حتى أقهَر شاهين.
وفي لجة الظلمة مُذ كان ينام فوق دَكة الحطب أمام كوخها الضائع.. يحتاج إلى غيبوبة لكي يتذكر أطراف نصائحها، لأن الذكرى معدومة في هَزّة النسيان. غير أنه لن ينسى وجوه الذين لَوَّحَت خناجرهم في العتمة لتصطاده، ولا الكلمات المُبهَمة التي يُطلقها مَن هم أكثر حكمة منه.. حيث تسلل قبيل الفجر إلى كوخها، فتمارَضَت حين عَرَفَت خطواته، وأخذَت تَهذي، وهو يقرأ وجهها المحروث: تحذير من يد ناعمة. فجَفَل وعاد مسرعاً، وقد سَحَب بكتفه لِبنة واهنة عن باب الكوخ. وأنسَته الرعدة أن يدس تحت وسادتها حزمة الورق المقدس، لذلك عزَمَت على عقابه، فغمرها وحي الشيطان، وأبصرَته عبر السقف يركض فوق سطح الكوخ فأسقَطَته... بكى واعتذَر.
ويبقى شاهين وحيداً، لا يدري، مُستديراً، مَخرُوطيّاً، أشكال أخرى من المُجَسمَات يَصيرها كالعجين والغرين، ومن بعيد جداً، صَعَدَت سيارة عبر التواء أرضي، فقرأ على هَدْي أضوائها، لافِتَة في الممر:"اعقد رأس الخيط لكي لا تفوتك غَرزة".
صَرَخَت الحَريم: إلى متى سنظَل في الظلمة؟.
وحَدَث شِجار حول ملعقة، فتحرك الخُفّان باضطراب، ثم صوت أجَش: أصمتن يا .. قحاب. فقال شاهين: كلهم يريدون الضوء، فلماذا الظلمة؟. ازدادَت حركة الخُفين وصرخ الصوت الأجش: اصمت يا قَحب. لم ينقطع الشِجار حول الملعقة، لأن حُرمته الكبيرة ـ اسمها زكية من خلال اللغط ـ تسيطر على الموقف لأنها تحمِل مفهوماً خاصاً عن حلاّب، فقد عاصَرَت تحوّلاته المختلفة، إذ أخذها بعد تجربة مُساوَمَة، لا بسبب قصة حُب، لأن أباها كان مَديناً لحلاّب بكيس قطن، فاحتَمَلَت

رفساته طوال سنين الأرَق وهو يُقوّس جثته باتجاه الأرض ويُداعِب لحيته الشبيهة بضماد أسود. وقد حَكَت لجاراتها عنه الكثير الكثير، مثلاً: حلاّب يَكتئب من نفسه، ومن البَشَر أيضاً. يحب أن يُمزّق ملابسه، هكذا، بدون حادِثة ضرورية. يفكر وحده، ويتمنى أن يُتلِف أعصابه، فتَتِيه أفكاره. لا يفكر بشيء مُعيّن لأن العُزلة تعجبه كالقهوة. بعد حادِثة صغيرة، أي كلام يُثيره فينهمك في العمل بلا رغبة تخص الحديث أو الطعام. يتألم لرؤية الفقراء. وإذا حكم في أمر ينقلب إلى الحق والبكاء قبل تناول علاجه. يُمسِك رأسه بسبب الألم ويتعذر عليه الاستمرار، ويرتَخي لسانه طبعاً. دَخَل ثلاجة المستشفى وأخرَج قريباً له بعد حادثة طريق، أخرجه خشبة وعيناه إلى الخارج وبطنه ورقية في الساعة الواحدة ظُهراً، أول يوم من أيام العيد.. ثم بقي ثلاثة أيام بلا طعام منعزلاً عند حافات بركة الضفادع.. لم يدخُل أحد إلى الثلاجة، تراجعوا، لم يدخُل أحد.. كان هناك بعض الرجال والنساء والأطباء فوَضَعه في نَعش طبعاً، واعتَبَرَ الموت شيئاً عادياً عندما رأى الميت بتلك الصورة، عيناه إلى الخارج وبطنه ورقية، لأنه لا يخاف الموت.

إذا طَلَب حاجَة يعني يردها فوراً، وإذا لم يُنَفَّذ طَلَبه يَخرج عن نِطاقه ويتيه، ثم ينظر إلى يده فيراها بعيدة عنه ويُطيل النظر بأصابعه ـ كل إصبع بطول رقبة أفعى. مع أنه يجد قدميه بعيدتين فيَرفعهما عن الأرض فلا ترتفعان. ويُطبق أسنانه، هكذا، بلا أية قُدرَة على الحكي. يتناول العلاج ـ وبعد العلاج، يتغير نظره إلى الأشياء، فإن تَكلم شخص معه بأي أسلوب لن يكون انتباهه مُركزاً فيما يقول: لأنه يمقُت الضوضاء والمُجامَلة وحساء العدس والنوم.. جيد إن نام ساعة، مهما كان مفعول الأقراص. قال لزكية مَرة:"أخلاق الناس بِنَظري. مَرة مَشيتُ مع صديق، واحد في المائة يُعطي الصداقة حقها.. مَصالِح".. وتقول لجاراتها عِبر سنوات الأرق: عاطفته محدودة تجاه النساء، فلا يَنظُر إلى الحُرمَة في الطريق لأنها ضعيفة. يُعجبه الظلام... الظلمة هدوء. وبعض ردود الأفعال حين ينظر إلى جسده يصغر ويصغر حتى حجم الإصبع عندها يحب سعادة عائلته، هذا هو طموحه. وإن أثارَ صديقاً أو غريباً ندم. كانت لديه انفعالات.. الآن ازدادَت. يحب إيذاء نفسه على أن لا يَجرَح الآخرين. لذلك يَسقط غائباً عن الوعي بعد أن يُحَطّم ما بين يديه. ولكنه يَعتقد أن الناس أكثر خطأ منه، وأحياناً يَجعَل المُسيء يصطدم بالحقيقة. ولا يُعير أهمية لرتبة شخص إذا انفعَل. مَرّة تاه عن البيت فاستَدَل بمواء القطط... إلخ. ومَرّة أخرى جاء النِقار: هذه ملعقتي يا فاسِدَة.. انتظري حتى نُضاء ونَرى. سأضربكِ بالحِذاء، بل سأنتزع خاتمكِ الذي اشتراه المَحروس أيام رحلة المدينة.. يا عيني.

ويصرخ شاهين: يا عيني يا عيني.. يتكلمون عن العَين في الظلمة. يقول الصوت الأجَش: تَصَرَّف يا شعبان. فَسَكت الجميع بعد أن تسلل بعض الضوء من الممرات القَصيَّة، واستطاع أن يَرى القُبتين المجروحتين، كعيني إحدى الحشرات النادرة. والقوام مُحاصَر كجذع إحدى الأشجار المنسية في فضاء مُمزَّق السواد. فضاء يُشير إلى حافة الأرض، حيث الامتداد اللانهائي بلا نجوم ولا كواكب سيّارة. بلا فائدة من انتظار شهاب يَسقُط. وبدا أكثر بساطة وتسامحاً. علامات جسدية ذابلة. حركات تدل على صعقات تدل على ارتخاء الرقبة تدل على الوجه المبعثر تدل على الاحتمال تدل على لحظات قبل القيامة.

كان يتحاشى الإجابة خشية الصفع ـ رَجُل في الباب، حيث مكانه الدائم، مسؤول عن الصرير ومناداة الأسماء. وهو أحمر رغم صعوبة الإبصار.

يقول الأجَش: أنتَ ابن رجل عظيم.. مرحوم. ما هذه الغَطسات؟.. أنتَ واحد منا، نريد مساعدتك، أجِب، كم إصبعاً ترى؟. وماذا تعرف عن علامات المرور؟.

يقول: لا أرى، لا أعرف. يقول الأجَش: انظُر إلى يدي، كَم؟.. أجب هيا أجِب. فيقول: لا أعرف. يقول الصوت الأجَش: أنتَ مخبول.. ارفعوا قِطَع الكارتون. حركة. ضوء. صراخ: هـ هـ يـ يـ... يهتف شاهين: ضوء!!.

كانت الجدران قريبة ومُصَدّعة ومليئة بالمسامير التي كسر بعضها الصدأ.

قال حلاّب: بإمكانكَ الذهاب الآن.. ولكن تَذكّر، ها، يجب أن تكون هنا منذ الرابعة صباحاً.

فأجابه: إذا كان لابد أن أجيء، فلماذا أذهَب؟.
يقول: بل تَذهَب. يقول: لن أذهب هـه. يصرخ به: يجب أن تذهب.
تَندَفِع جلبة في الممر، وصوت: ماذا فعلتُم به.. أينَ ولَـدي؟.
يقول حلاّب: لماذا تصرخين يا هاجر؟ كنتُ أُعلمه الحساب لأجد له مهنة مناسِبة.
اقتَرَبَت من جرحيه: تُف. ثم سَحَبَت الولَـد..

خَلَع الليل نصفه الأول، واكتملت أحلام المُبكرين في النوم. بعدما ادعى حلاّب بأنه قَدَّم للمخبول اختيارات الخسارة التي منحته الرقة وسط اللجة، لأجل نظافة القرية، مُساقاً بدافع خفي.. لا يميل شاهين إلى إعطائه صفة الغيب، لأنه مفهوم بِقَدَر اهتمامه به، رغم إمكانية تجنبه في هذه الأيام الشبيهة بالزبيب لأنها شبيهة بكل جُهد ضائع.

يَعتقد أنه توَصل إلى حافة الفهم الذي يُحوِّل كل غامض مُقَدَّس إلى شيء ممكن اللمس والرؤية. ولطالما هَرَب لأنه لا يجرؤ على تجنب المؤذي، عِبر عوامل الكذب الضرورية في تلطيف اليوميات التي لا تنفصل عن الاهتزاز أمام الزاوية، حتى ابتسامة الجلوس أثناء رشف الشاي. لقد حلّ الوقت الذي لا يستطيع أن يمنع نفسه من الضحك العلني...

رآهم مُجَدّداً، مثل كل يوم، يَضحكون في صلاة دامعة، وقد مَزَّقَتهم ساعات النصف الأول، وساقَتهم إلى قَطع الضحك بالتثاؤب، حيث يَفتَح الواحد أقصى الفَتح: هاه.. تعبيراً عن التفريغ التام لهبوب الزوابع عندما تُجَرِّب قوتها في السقوف؛ السماء القريبة، داعية الأمن القريب. لكي يُغذي نار الحنين إلى ضرورة الجسد الآخَر تحت اللحاف. إن كل ما هو كفيل بإزالته، كفيل بمحو ترتيبات الضرورة بعد جلسات الشاي واختيار الحبل الأحمر من حيث مُلاءمَته لفصل السنة، لأن أهميته، أصبَحَت بالنسبة للضاحكين، كأهمية حَصاة في زيمبابوي ـ عِبر نشرة أخبار مجاعة السود. لعبة الموازنَة التي تَخلى عنها في تَناظُر مَسانِد الكراسي، ونوم الأشخاص؛ قَدَمٌ عند رأس، رأسٌ عند قَدَم. لم يكن أي واحد منهم ليتساءل: هل يحق لنا الضحك؟. مُنطَلِقاً من اعتبار عدم سعادة النافذة المُقابلة.

لم يتمكن من الإجابة، لأن الأمر مرهون ببعض عمليات الإحصاء التي عجز عنها أمام حلاّب:" ١+١ .. كم يساوي؟". لكن الصراخ يرتفع كشيء إلى الأعلى، لا كصوت يزداد.

ويصير بعيداً.. بعيداً. ويضحَك في داخله، ثم يفتح عينيه فلا يُفاجَأ بضوء النافذة، ورفعَة الأثاث، والسجاد المُزَيَّن بطواويس وأعراف هداهد، وذِكرى المُعَذَّب صابر بعد ليلة المطر. ولكنه يُفاجَأ بقوة الضحك تقريباً، لدى المرأة التي لم تكن قادرة على الاحتمال، فأسنَدَت رأسها فوق "صابر" ناطِحَة، وهي تهتز بحركة تَدل على الذبح وتَقَطُّع الأمعاء.. ثم تنهار، ويبقى صدى ضحكتها صاعداً من محل السقوط، باتجاه مكان الخَفَقَة الأخيرة لقميصها المهتز ذي البُقَع الحمراء.

ينخفض صوتهم تدريجياً بعدما غَلَبهم النعاس. يتحول الكلام إلى همس، فيقوم أحد الرجال ويقعُد لصق المرأة الباقية، وهي مستمرة في الاهتزاز، لا بسبب الضحك بل لأنها تُرَقِّص ساقيها تحت الـ... إذا كان ثمة منضدة أصلاً؟.

تُهمِل رأسها إلى الوراء فتسمَح له بأكل عنقها، وتموء، وتدفعه بحركة تدل على الاحتضان. أما الآخرون فقد غطّوا عيونهم بأكُف مثقوبة، وأسدَلوا فتحات الضحك تقريباً. ينحنون قليلاً باتجاه نور أحمر راقص.

يلتفت الرجل الذي أكل عنق المرأة، فيرفعون أكفهم، ويبدأون بنوبة ضحك تُزهِق النعاس وتطلع المرأة بعدما رشّوها بالدموع الطافرة، فتُثمِر كُرتين بيضاوين، بإزاحة القميص، وأغصاناً من الشَعر المُبعثَر، لتُشاركهم وهي تتمايل في ريح أول القهقهة.. ..

يحاول شاهين أن يقفز نحوهم، لكن الهاوية.. ...

يأخذه الضحك، يغلبه، فيضيع بين نشيد ست فتحات، منتبهاً إلى فتحته الصغيرة في زجاج الشُباك، إذ ينقُر الحافة بأصابعه فيرتد نحو الزاوية، ليحاول الاهتزاز... ويفشَل شاعراً بالحقيقيين والمرأة ذات الأغصان، الطيبة المُريحَة المُثمِرة عِبر طَعنَة القميص، رغم برد الخريف،

والاستعدادات الأخيرة لسُبات الضفادع، مروراً بفسحة حلاّب وهو يخدش الغجرية بخُبزَة جافة. أطراف مأدبة. الذكريات والأغاني. الباذنجان على الجريدة حيث الموضوع الخاص بمجاعة السود. براعم أصلاب الرجال الخارجة نحو الأسن. أيام شبيهة بالزبيب لأنها شبيهة بكل جهد ضائع..

يتمطى النحيف، وتغلبه الحاجَة إلى وشيش مُستَنقَع الغطس، لحظات استبدال القميص الذي انمَحَت نقوشه بنفس القميص الذي انمَحَت نقوشه. وأتته الفرص كثيرة، لإعلان نتائج التجربة، غير أنه كان يخاف سلامَة النطق، فتضيع بعض التجربة، غير أنه كان يخاف سلامة النطق، فتضيع بعض الحروف، ثم الكلمات جميعاً، ثم الصوت، باستثناء صَرخَة يُتقنها، لا تعني شيئاً أو أحداً. صرخة بلا صوت ولا حبور، صادرة عن أسفل القصبة الهوائية، عن أسفل الشعور المُدَمِّر بغلبة فيضانات الهند، من خلال نشرات الأخبار. عن أسفل الأسماء والأفعال والصفات وروائح الآخرين. أسفل أي شيء آخر..

ولكنها محض صرخة في الفراغ: دا ـ با ـ دا ...

لذلك كان الضحك بعد المحاولة. الضحك دائماً. الضحك الضحك الضحك.. إلى ما لا نهاية...

وهو يحس، هذا الذي اسمه شاهين لأي سبب من الأسباب، بألم الأشجار عندما تنزع أوراقها الميتة، بصراخ النهار حيث يبتدئ وعذابه حينما ينتهي، بنمش الذباب على جدران البيت الجصي. ويحس بثقل قُبة السلحفاة، وعذاب الحلزون بسبب القوقعة. يحس، وهو شاهين، بمرارة الزفير، وألَم طرفي المسمار؛ المطرقة من طَرَف، وصعوبة الاختراق من الطَرَف الآخر. وبكل شيء تقريباً. لذلك فهو ميت الحس في نظر كل شيء تقريباً.

ووصفوه للصحفي الذي كَتب عن حلاّب افتتاحية ضخمة لإحدى صحف الغرب، فأطلَق كلمة غير مفهومة:"Unexitsim". فقالوا عِبر المُترجِم:" اكتُب عنه يا مِستَر". فَرَد مُنزعِجاً:

“OH.. we have many of this Kind in Europe".

ويظل يُجرب بلا إعلان، مأسوراً بعزف الحنجرة في حالتيّ المُنفرد والجماعي، لأن للبعض صوت الرباب، ولتُجار القطن صوت الآلات النحاسية. وها هي النابتة أمامه، تُثمِر بعدما رشّوها بالدموع الطافِرة، كُرتين بيضاوين خلال تَفَتُّق القميص، وأغصاناً من الشَعر المُبعثَر، لتُشاركهم مُهتَزَّة بهواء أول القهقهة.

وينحنون نحو الأسفل بحركة ضاحكة رافعين بعض الأشياء من مكان إلى مكان قريب. وفجأة، بدون إعلان أو علامة، ينطفئ الضوء، فتتحول الغرفة المرتفعة إلى شَبح عُش اللقلَق محاطَة بفراغ الظلمة المُمَزَّق، بفعل الدفقة الأولى لحنين القمر إلى مُناجيه، لحظة ابتداء يقظة بعض الزُهاد كالعَم مسعود لكسب أجر الصلاة المُبكِّرة، بعد أبواق الديكة..

ولكن الصدى الإنساني، عذاب الاشتياق إلى الأثر، لمسة زَغَب الوجوه عند العناق. المناجاة. المناجاة الطيبة، الرقة الغالبة، الفضفاضة المقبولة، فم بفم. عين بعين. امتداد الأشياء كخطوط في الهواء باتجاه النصف الأسفل المُحَطَّم للبوَة الجريحة.. فأين هذا؟.

سمعهم ينزلون إلى الجَوف ـ أي جَوف كان، مهما كان ـ ضمن شَبح عُش اللقلق. فالمهم أنهم ينزلون حسب صِدق الوَقع. وقع الأحذية على السلّم. السلّم المؤدي إلى مركز كُرة الأرض. الأرض التي تشرب مَسرّاتهم. مَسرّاتهم الباقية كخفقَة انقطاع النَفَس لطائر ساقط عن ارتفاع..

يحس بأنه حزين. ليس حزيناً بالضبط، وإنما يريد أن يبكي، وهو يُراقِب صوت الفجر المُتَسلل بين الأحطاب وقَصَب السقوف والانطلاقة الأولى لعصافير العراق..

يأتي صوت العم مسعود مُنَغَّماً بسبب التواء الأرض: الله أكبر أكبر.. الصَلاة خير من النوم.. الله أكبر..

يحاول رؤية الخط الأسود لطيور سماء النافذة، لحظة دخول رائحة المَزارع.. وبعد دَقة حاسمة من دَقات الساعة. يداه مفتوحتان في الظل للإمساك بشيء ما. فيرتَد؛ منشَفته، رفوف القواقع،

ملابسه التي لم يستعملها منذ عشرين عاماً وقد صارت صغيرة لا تكسو جزء الساق. ومنذ ذلك التاريخ تَصعَد هاجر إليه: ألا تُفطِر؟.

فيَنـزل حيث اللبَن الرائب وبخار الشاي، ويسمَع نشرات الأخبار الأولى:"زَلازِل. فيضانات. أخبار مجاعة السود. مُحادَثات نزع السلاح النووي. عمليات الفدائيين العرب. جلسات مجلس الأمن. إرهاب عالمي. مُخدرات. فضائح سياسية. تجسس. جرائم. خَطف. حروب. انقلابات. انحلال. أسلحة جديدة... إلخ".

وتَنظُر إليه باستنكار شديد، وقد نَصَّفت حِدادها المُعاد بوصلة من حبل الغسيل. فيَشعُر بالهاوية ممتدة من جذور السِدرة حتى حافة السماء، رغم ندى أوتاد الفولاذ، والأشياء التي لا يحتاجها المرء، مع ذلك يعتز بها. يفرُك أذن المذياع:"رجع أيلول..." وتذهَب هاجر بالأغنية حيث الغطاء المخصص لها على الرف، وتبادلها بمديَة فضيّة مُنَمَّشَة بالصدأ: أعرف بأنني عاجزة عن إقناعكَ بعدم الذهاب إليه.. فاحملها، لا لتقتله بل لتَتَشَجَّع. فيدفعها قائلاً: هذه الأشياء، يُحِب هذه الأشياء. تقول: أعلَم، يُحِبها لأنه يخافها.. فاحمِلها.. أتوَسل إليكَ. يقول: تتوَسل إليك لماذا لا تحمِلها.. إنها تتوَسل. ويُسقِط المديَة في جيبه ويخرُج.

كانت الشمس قد تَحَرَّرَت من التِلال عِبر طريقها المألوف إلى مُنتصَف القُبة النحاسية. فأنزلَ عينيه حتى استقر بصره في نهاية قطيفة الطحالب حيث صخور البئر المُحَزَّزَة بالحِبال..

يَعتقِد أن ثمة امرأة تُشير إليه: اقتَرِب. هي التي تشير فيَتَلَفَّت ليتأكد إن كان هناك شخص آخر تقصده، فلم يجد غير شاهين. ويجيئه نداء منها: ألَستَ... أنتَ اقتَرِب هنا. يقول لها: أنا شاهين. تقول: نعم أنتَ، اقتَرِب. ويُهَرول بسبب الانحدار لا بسبب الفضول، فلا يعرف كيف يقول لها؛ صباح الخير!. تقول المرأة: عزيزة تقول بأنها تنتظركَ عند السِدرة فاذهَب إليها..

يقول: ها؟ عزيزة تنتظرك عند السِدرة. لماذا تنتظرني عزيزة عند السِدرة؟... سأذهَب إليها.

عندما دَفَع حلاّب غطاءه وأزاح ستائر السرير المُعَد لثلاثة أشخاص، أبصَر الشمس جالسة على أغصان شجرة التوت، والعصافير تستحم بالضوء. لم يقُل؛ صباح الخير لزكية التي استيقظت قبله بساعتين. فبَصَق على الحائط بعدما حَمَلَت إليه أنسام الصباح رائحة قمامات الحُفَر، لأنه نام على أمل أن لا يستيقظ قبل قَرن.

كانت شفته العليا مُتَوَرِّمة أثر قرصَة حَشَرة. وكانت القطط تُغازِل أذناب بعضها في الممرات، عندما نَزَل العتبة فوجدَهم يسلُقون البيض منذ الرابعة. فأبصروه مُخدراً يجُرّ وزن النعاس، وهم يطرُقون على السياج بملاعق النحاس، فلم يتبين اللحن لأن الصوت قبيح بفعل رائحة البيض النيئ - وشعبان يَشرَب البيض النيئ لكي يصفو صوته في الغناء، وفق المفهوم المُتناقَل - وصرخ بهم: أوقِفوا هذا الدَق.. ألم يأتِ المعتوه بعد؟. فهزّوا رؤوسهم بحركة واحدة علامة النفي.

غاب في الممر لحظة، ثم خَرَج بالعباءة والمسدس، واقتاد صديقه إلى البركة ولم يقل له؛ صباح الخير، بل قال: فَفاح الخيف. لأن الشفة العليا مُتَوَرِّمة بسبب قَرصَة حَشَرة. وظل صامتاً بعدها حتى البركة. وهناك، كَسَرَ غصناً، ثم بَصَق على عيدان شجيرة العنب. وراح يتدلى بغصن شجرة أخرى ويقول: لا زلنا على أمل، أسمِعني أقدَم لحن لديك.. آه، إنني أرتاح لتلك الأيام. وسقط خُفه في الماء.

يبدو شاهين مُحايداً في وقفته تحت السِدرة، مُحايداً تجاه كل مواضيع الحياة الممكنة، بالنسبة للمارين به نحو مَزارعهم، باستثناء لعبة الانتظار التي يأمل أن تنتهي عندما يجد فيها بعض العَزاء، على اعتبار أن الأمر سيُثَبِّت طَرَفاً منه بمثابة مشجَب لكي لا ينزلِق الطَرَف الآخر إلى النسيان..

وجاءت بقميص برتقالي لأنه أبصَر خطوتها البرتقالية على طَرَف التَل هادئة مُنكَسِرَة. فَفَكر؛ هي التي ضَرَبَت له موعداً، مُؤكّداً لنفسه لكي لا يَسقُط في الحَرَج، يوم نزهة الكلاب على التلال القريبة.

رأى ابتسامتها الخائنة، فعَرَف مُقدّماً بأنها لا تريد قول شيء مُعَيَّن، وربما لا تعي سبب المجيء. ولكن الذي حدَث كان نوعاً من التحالف على تجديد الصراع. فكان الأجدَر به الانصراف إلى حلاّب في الرابعة صباحاً.

يقترب وجهها المُدَبَّب حتى يصير أكثر وضوحاً في الظل، فيتمكن من رؤية الكَدَمات؛ زرقاء مُحاصَرَة بالبياض. يُشير إليها: ما هذا؟. تقول: لا شيء.. إنها كَدَمات. فيقول: أرى أنها كَدَمات.. ولكن ما هذا؟. تقول: قلت لا شيء.. آه.. سَقَطتُ من السلّم.

يقول: لا شيء، سَقَطتِ من السلّم.. انزلي على مَهل دَرَجَة دَرَجَة يا بنيتي.. دَرَجَة دَرَجَة. وتضحَك فيرتاح. وتقول له: أنا التي طلت منكَ المجيء.. وجئت.. لأقول، لأقول... لا أريد أن أقول شيئاً. يرفع صوته قليلاً: بل تُريدين.. أعرف أنكِ تُريدين. فتُنزل رأسها إلى الأسفل، مُفَكَّكَة لأنها غير مشدودَة بالخيط القطني الغليظ، فبَدَت له صغيرة قياساً إلى الأحجار. صغيرة وضائعة. صغيرة وفاقِدَة. فاقِدَة شيئاً عزيزاً ومُهِمّاً. مُهم لأنه حَسّاس. حَسّاس لأنها قالت: عوّاد. وكلمات أخرى مُبهَمَة. مُبهَمَة لأنه سافَرَ بالقطار إلى العاصمة. العاصمة بيت الشُهرَة. والشُهرَة خسارة للجميع. والجميع يخسرون بذهابه.. وذهابه مفاجئ لها كَوَقعَة مِن السلّم. والسلّم دَرَجَة دَرَجَة.. على مَهل.

يقول: ماذا يعني؟ هو الذي سافر إلى العاصمة لأنه يريد أن يسافر إلى العاصمة.. أما أنتِ.. ماذا؟. تقول مُنتَبِهَة: ماذا؟. فيقول: لا أدري. وتبكي...

يُخرِج سيجارة من بقايا عوّاد، ويتأمل تَصالب جذور السِدرة، ثم السماء الشديدة الزُرقَة، بدَت له بأنها غير مندهشة إزاء بُرودَه. لكنه يعرِف أن حركة ما على وشك الحدوث، حيث يَلتفِت فجأة ليضَع إصبعه أمام مَجرى الدمعة. فَجَرَّته من طَرَف الرداء حتى لامَس نهدها الصغير إبرَة ساعِده الأيمن، فارتَجَف خائفاً بدرجة يصعب احتمالها حتى أطراف الصراخ. ولكنه فَضَّل التدخين بحركة تُعطي الرجل صفة ممتازة عن المرأة. بكثير من الغرور، بذلك التخريب الخاص لعاديَّة العاطفة، نافخاً الدخان بَعد السُعال نحو الفضاء، صُعُداً وذوَباناً في الفضاء. ضحكت: يا إلهي.. أنتَ رجل عجيب. فألغَت هذه العِبارة الكثير من طُرق الدوران حول الحقيقة. وانفرَجَت عيناها عن ضوء وضَع أمامه، باختصار شديد، وقائع ولادة أطفال العالَم، في الخط المستقيم لمستقبَل البَشَرية، مباشرة دون أي تمهيد منطقي..

تأملَ عزيزة - لم يَتأملها - لكنها فَرَضَت عليه صفاء الوجود، وألغَت بكل بساطة، وبحركة واحدة من رأسها ذي الشَعر المُبَلّل، تفاصيل الخوف والحُب والاستعمار والنميمة ومجاعات السود عِبر نشرات الأخبار، ومَرارَة التَسلُّق. تلك المليئة بالبكاء. نادِرَة. تتكون وتَقفز فوق اليوميات وتمثل أمامه مُبيِّنة أنها تميل إلى حيث يُشير، وتُفَجِّر فيه ينابيع الضحك الحارّة. أليسَت جميلة كَزَهرَة سامَّة؟. تلك القائلة:"أخاف اللذة " عندما سألها عوّاد آنذاك، أن يَلتَصِقا حتى وقت مُتأخِر من عُمر الأرض، وبين عظامهما المُتشابكة على التل تنبت شوكة طرية حيث تَبتَل العاطفة برذاذ مطر الفجر، وتَطرَح الأغصان جميع أوراقها الميتة في خطوط السيول وتَتَبَرّعَم مُعلِنَة عن ابتداء فصل جديد سَمّاه؛ فصل القوة: أ. ب. جـ. تَعلُّم مبادئ تصفيف الشَعر من خلال الشطرنج، ومعرفة مواقيت وجوب البكاء من طريقة ارتداء الجَورَب. لكن الأمور التي ظَلَت تُعَذّب عوّاداً بمثابة لغز لدى الأصحاب والأعداء معاً، وظَل يُبعِد فكرة: أنهم يتحدثون عنه حيث كان يحسّهم في الإشارات أو المواجهات الصريحة المُغَلّفَة بالمُجامَلة. فكانوا يدفعونها إلى الجَدَل بقصد تدريبها على نُكرانه، وذلك بالإغراء في وجبَة نادِرة لأجل زيادة الوزن، مُستَغِلّين نحولها واصفِرارها اللذان يُحبهما عوّاد.

وهي تعرف أن المقارَنة بوضعه أمر فوق الاحتمال، لأنها كانت تُحَيّيه عِبر زجاج المَشغَل وسط الجماعات الضائعة، حتى تزداد غيرته فيَصبُبّها ألواناً حارّة على الخَشَب. وكان الأمر سبباً كافياً في تأخُر نضوج ألوانه، فلم تُقدّر تلك الهمهمات اللونية رغم كل الارتفاعات المبررة من قِبَله، والتي اعتَبَرَتها غروراً، إذا ما قِسَت الأمور بمؤشِر دَحر شخصيتها... فتُعَبِّر عن تلك الحالة بالضحك

المُرتَفِع الغارِق، بصُحبَة الآخرين. ولكن عِلم الآخرين لم يتجاوز التأكيد، بأنه حين يَكتُب واجباً مَدرسياً عن دِيدان الانكلِستوما فإنه يَذكُرها كعِلَّة في الهامش...

لا يعرف شاهين هذه التفاصيل التي افتضح بعضها بتبادل النظر. وهو شاهين، يحس بألم المسمار؛ المطرقَة من طَرَف، وصعوبة الاختراق من طَرَف آخر... حتى مصاف الرجفَة والخجَل من النظر إلى الطبيعة.

وتقول: جئتُ كما تَرى.. فلا تَعتقد بأنني أحبكَ، أتفهم... لا أحبك. ثم مَضَت ببراءة حَجَر ساقِط. وشَعَرَ، بوحي من نشرات الأخبار، بمنظر الأرض بعد الحرب النووية؛ سكون نحاسيّ مُمتَد في فراغ لا حَد له..

السماء وحدها، لم يكن أي شيء قد تحرك.. الفضاء بكل اتساعه. ما من شيء يُثير الضَجَّة. ما من شيء يَنتَصِب أو يهتَز.. لا شيء.. لا شيء..

خافَ شاهين، وهو لا يخاف تقريباً. وصرخ بكل ما يملك من هواء مخزون عندما كانت تتسلَّق كتف الوادي: عزيزة.. فتَوَقفَت دون أن تلتفِت. وقال بهدوء: هل قلتِ لي مَرّة أن اسمكِ.. عزيزة؟..

ذكَرَت زكية لجاراتها بأنه لم ينَم طوال الليل وظَل يُقَوِّس جثته ويُداعب لحيته الضمادية، وهي تنثني مع غضبه وتُحَمِّص قهوته على الجمر، وتَعرِفه من خلال تبدل شكل جرحيه فقد عاصَرَت معظم تحوّلاته.

بينما يَطلُب من شعبان أن يُسمعه أقدَم لحن، سَقَط خُفه في وحل البركة. فاعتقَد شعبان بأن زكية تهتم كثيراً بتهويل الحوادث. فيَعقد يديه على صدره حتى يبدو للغريب بأنه مُقبِل على نوم، ولا رغبة له في سماع خَبَر يخص الآخرين. ولكنه يسأل في السِر عن حادِثة شِجار زوجين آخر الليل.

أخَذ يُحزِر كمية (الخُردَة) في جَيب المُتدلي من خلال صوتها المُهتَز باهتزازه. يكشف مع نفسه مسؤولية حلاّب في قضية اختفاء محمود، لأنها بَقِيَت مُحاطَة بالسريّة التامة. وقد فَسَّر له الرجال المُهتَمون بشَجَر الأنساب بأن محموداً لا يمت إليه بصِلة قُربى، باستثناء وقفاته الشهيرة في طَلَب إرجاع الحق لأصحابه، وإلا كيف يُقدِم على إخفاء شخص آخر لا يَعرفه؟.

لقد رُوِيَ الكثير لشعبان عن فتنة ذلك المساء ـ مساء اختفاء الصياد ـ إذ شَكَر أصحاب القطعان رُعاتهم عندما تلمسوا بطون النعاج فوجدوها مُنتَفِخَة شَبَعاً. وكانت النهارات ذهبية خالية من إزعاج العوض.. وحيثما يمتد البَصَر، ثمة هشيم يكفي الدواب طوال موسِم القيظ القادم، فينتظر الناس في موسِم كهذا، ذيوع أغانٍ جديدة. إذ سألوا بعَجَب: كيف استطاعَت التي اعتقَدنا بأنها بَلهاء من حياكَة أغنية حلوة؟. ومهما كان اسم هذه الفتاة؛ خديجة، أو فاطمة، أو سعدية.. .. بينما كانت هواجس حلاّب غامضة، وقدماه تَنفُضان بذور الخُباز الجاف وهو يَخطو مُلتَذاً بانسِحاق الهشيم.

كانت البيادر تَهب نفسها لِلهَبٍ مجهول، وتُخرِّب مضخات الماء، وتُبعَج السواقي التي تَرفَع الماء فوق المُنخَفض. بَلبَلَة وأحداث أُلصِقَت بالرجل الضائع خلفَ أرنب مُبَقَّع. بعدما كان الناس يَرونه في أحلامهم مُنَصَّتَاً بحِزام الخرطوش لثلاث سنين تالية، وقد بَلله مطر التيه وعَفَّرَته كدَمات البحث عن البيت.. حتى أنه شرب الشاي في منزل أرملة منسية عند طَرَف القرية، وشَرَح لها حُسن نواياه وحقيقة براءته واشتكى لها ظُلم الناس.

كانوا يستيقظون على صوت الديَكَة فيجِدون الخَراب؛ نوابض مضخات الماء منثورة مسودة بالاحتراق، أما بَكَرات التشغيل فكانت ضائعة في الحقول، حيث الأحواض المُهَدَّمة، واختلاط زيت المُحركات بماء الآبار، وقد ماتت جميع ضفادع التسلية في لحظات الراحة..

تَعِبَت رقبة شعبان من متابعة اهتزازه، فخمّن أنه، ربما، يعاني من فَتق تحت السرّة، وأن الطريقة أكيدة العلاج، ولكن الفَتق لا يبين في صورته المعكوسة على الماء كَلَقطَة تحتيّة بسبب الكَدَر الذي أحدَثَه سقوط الخُف.

أطلَق صوته ليَجذِب حلاّباً إلى السكون والإنصات:"أقضي الليل أعد النجم بالجوز، عالذي نهوده بيض لِب القطن بالجوز". وفَرِح المُتَدلي بهذه المبادَرة، فقَفَز، بعد هزّة عنيفة، إلى اليابسة. سأل شعبان: أتعتقد بأنه ابله حقاً؟.. أكيد أكيد. وأكد له صديقه مُشيراً إلى صِدق تَخميناته السابقة

عِبر وقائع كثيرة تخص تَخمين وزن بعض الأكياس، وغلبة نوع محدد من الزَحّافات في دائرة ضوء السِراج المُستَورَد، ثم تَحَقُّق التوقع الشهير بأن الشتاء القادم سيكون بارداً قليل المطر.

وفَرِح لأن صاحبه يعرف مزاياه ويُبارك صِدق أحكامه، حتى صار على يقين تام بأن ابن الصياد مجرد أبله لا ضَرَر منه..

أُشير إلى مجيء شاهين عندما بدأ هواء ما بعد الظُهر بالهبوب مُحَمَّلاً بشذى أشواك السفوح، ماراً فوق حُطام مَزارِع القطن وقناني الدواء التي زَرَع الصبِيان بَصَلاً في فوهاتها. وتحركت خيوط العناكب قُرب الأعشاش.

فكان المجهول القادم يُبَشِر حلاباً بالقوة التي ألقَت الفَخ أمام أصابعه وحَرَّمَت عليه ساعات المُتعَة بوفرَة المحصول، وأعطته سنوات الأرق مأخوذاً بشهوة الفيضان والبَرق وموسِم تَزاوج الضفادع، حين ينام فاتحاً جرحيه ومادّاً رأسه عِبر فجوة الباب إلى الطريق، حيث أسراب العجائز تَحيس في الصدور السلِيلَة نبأ عن رجل مات بسُم الفئران، فيجعله مثل هذا الحَدَث يكتئب فيهوي برأسه على الوسادة مُنتظِراً حدثاً آخر، صارفاً الساعات الطويلة في حُب أشيائه؛ الطابوقة التي تمنَع الباب من الانزلاق، المسمار بمثابة مشجَب، السرير الذي صارت نوابضه مُرتَخِية..

انتظَر شاهين، وهو صغير بالنسبة إلى الجدران، ينتظره ويَدور حول الأكياس المشنوقة. يَدور فتتحوّل عيناه إلى حصاتين ثقيلتين بسبب النعاس فلا يَرى البيت الجصي مثلما كان يراه سابقاً. مجرد أعمدة ودهاليز مُنَمَّشَة بفضلات الذباب، وسِلال ودَرَّاجات هوائية مُحطَّمَة. حُطام دَرّاجات وكُوى لأجل متعة الأبقار النافقة في الروث. وتِلال من الروث تغمر بعض الأشجار ودَكّات الحَطَب. ودَكّات حَطَب سودها حِداد النساء وأمطار المواسم الماضية. رجال ونساء في حركة دائبة، حركة رواح ومجيء نحنو الفَتحات ومنها. أصوات وشتائم وتساؤلات وإشارات تقصده أحياناً. فكلما مَرّ شخص توقف أمام وجهه مُتَعَرّفاً ومُشفِقاً... ثم مضى يؤرجح ذراعيه في حركة الغصن المكسور.

يقف مُستعمِلاً جرحيه. حلاب أمامه. قَسَمات عِبر الغبار والملمس الرئوي لأنفه. شارب مُبَعثَر فوق قَرصَة الحَشَرة، بسبب قَرصَة الحَشَرة. جلباب مُهمَل بِقَدَر ما هو فاخر.

يؤكد بأنه يرى لأول مرة رجُلاً بهذا الذكاء. ينظر هذا الرجل إليه، مثلهم، أحياناً ينظرون إليه ولا يقصدوه، يبتسم هذا الرجل، بهدوء ومكر.. بقوة.. يضحك ضحكة المَمر المُعتم الفَحيحيّة المليئة بالمعاني الباطلة. وتَظهَر عيناه، تقريباً،، كالتِماع علبة تبغ، ويقول: أفسَدنا نومَك.. أستاذ. ويبصق أمامه فيتأمل دِرهم البصاق المصبوغ بلون القهوة والنيكوتين والكلمات البذيئة، بلا أي أثر لقُبلَة حقيقية. يسأله: هل مِن خدمة؟ ماذا في وجهي؟.. لطخَة حمراء؟!. ويضحك تلك الضحكة ثم يشير إلى شعبان، يُطوّق رقبته، ويسحبه ليسرّ في أذنه كلمة (.. ..) أضحكتهما معاً حد الرفس.

يطلع الرجال الآخرون من كُوى الأبقار، ويجتمعون مُثنى وثلاث، يتكلمون في همس المُراهَنات ويَنظرون إليه تقريباً. يُشير إلى أحدهم. وهو يُشير دائماً فَيُلَبون. يجيء راكضاً ليسمَع تلك الكلمة (.. ..) ثم يعود راكضاً نحو الزريبة... ويطلع بعد قليل حاملاً صَفيحة، ويُركّز تلك الصَفيحة فوق أحد مرتَفَعات الروث.

يَحملونه على أذرع قوية، فيَعلَم أن لا جدوى من الرفس، لأنهم سَقوه بالقوة، في مرة سابقة، حليب أنثى الحِمار لأجل الشفاء من السعال الدِيكي.

واحتاجَ لرائحة السُوس. آه.. السُوس. لكنهم أجلسوه مُنفَرِج الساقين على الصَفيحة، تحت صدور كثيفة الشَعر، ورائحة آباط وروث وكلمات مُبهَمَة وصيحات فَزَع، ومناخِر كثقوب الفئران المليئة بالدغل، فقال: هَخ هَخ. فأفرجوا ساقيه أكثر..

بَهجَة. واقفون. ضحكٌ مُختلف عن ضحك الشُباك.. ثم سكون ما بعد الضحك. وحَلّوا اشتباكه المُعَقَّد كاشتباك الفَخ، وقالوا: ابدأ يا شعبان. وسمَع مبرداً يَحُك سِكّيناً قُرب أذنه، فحاول أن يَكتَشِف، لكنهم ثَبَّتوا رأسه إلى أمام..

يحس بالحَد المُرهَف القاطِع، بالحاجَة الماسَّة إلى الرَقَبة، وضرورة الجلد لأجل عملية التنفس فقط. لأجل الشهيق بالذات. ويحاول أن يَسحَب عينيه إلى مكان آخر قُرب الأذن فيَفشَل.
لحظة رهيبة كَدَبيب، كأي شيء قابل للكَسر. وهو شاهين، لا يخاف ولكنه يأسَف. يقترب خط مؤلِم من حزوز الرقَبة، فيقول: إن.. هاجر... أمي.
يضحكون.
ويقول: اذبحوا نعجة بدلاً من شاهين. ويزداد ضحكهم المُختلِف عن ضحك الشُباك. فيقول شعبان: لا تَخَف يا ولَدي لا تَخَف.. سنَحلِق رأسكَ فقط. ويُريه المقص الخاص بِجَزّ الصوف، لأن شَعره كان طويلاً ومُلبَّداً. بحيث لا يُجدي معه المقص العادي... زِق.. زيط.. زِق...
بعد أن أتموا العمل ببضع دقائق وسط صيحات الغبطة، أنزلوه عن الروث، وقدموا له قطعة حلوى.
ابتدأ الكَرَم حين انتزَع حلاّب مسدسه وجلَس بين وسائد الصوف..
كانت هاجر تُنصِت إلى ضحك الضيوف وصوت ربابة شعبان، حيث يتحول الصوت أحياناً إلى قَرقَعَة، فتُخمن بأن الربابة مصنوعة من صفيحة (دِهن الراعي) ذات الحجم المتوسط. قالت لنفسها: هـه.. لماذا يصيحون؟!. ومَدَّت أذنيها نحو مَصدَر الصوت مُلتَقِطة بعض الكلمات والصرخات التي لم تُميز منها شيئاً ذا معنى، وهي حائرة بين أن تَذهَب، أم تتركه لأجل الدليل..؟..
فَتَحوا باب غرفة متميزة، فَخَرج صحن صغير ذو شَعر، ثم استطال الصحن فتحوّل إلى مِقلاة.. ثم، مِقلاة بقَبضتين مُتَحَركَتين وعَلامتين مُضيئتين في النصف الأعلى.. ثم رأس.. رأس حمار وليست مِقلاة. حمار نادِر بلون أزرق ضارب إلى صفرة الكبريت، مَدهُون بزيت الخروع، وقد زاده جمالاً مَنظَر العصافير على ظَهره. فقَدَّموه إلى شاهين لأجل التَعارُف.
يقول حلاّب: نُقدم لك الأستاذ شاهين. ويقول: نَتَشَرَّف. بَدَلاً عن الحمار. ويقول: أُقدم لك قُندس، هل من اعتراض؟.. اعتراض على اسم الحمار مثلاً.. والآن هيا يا شعبان. يقول. شاهين: هيا إلى ماذا.. يا شعبان. فلم يُجِبه أحد.
هَزّ قُندس عنقه فَخَشْخَشَت قِلادَته المنظومَة من خَرَز وأحجار تستخدمها النساء لزيادة المَحَبة. ولكنه يعاني من ضيق التنفس لأنه مُصاب بالربو، فلا يُسليه غير المشي ومناظِر الطبيعة.
وأُمِر شاهين أن يمشي إلى جِوار قندس لأنه يَرفُض المشي خَلف أحد.
كان الحمار مُنشَرِحاً بحيث أنه لو امتلك جيوباً لوَضَع فيها يديه الأماميتين، أو سلسلة مفاتيح لخَشخَش بها..!!. وشعبان يمشي خلف الاثنين، ويُطلِق صوته المدهون بالبيض النيئ، ويأمر بسَلك الطريق الأطول.
ولأول مرة يحس شاهين بالمشكلة، لأنه لم يعرف غيرها في حياته، عدا مشكلة كُمّيه الذين ينزلان في صحن الحساء فيصفعه أبوه ويحرمه الطعام، وقد اهتدى آنذاك إلى حل مُعيّن، فخَلَع كُمّيه من خِياطَيهما الكَتفِيين، فكان العقاب أشَد... ولكن مشكلة الحمار قندس؟!!... ..
فَتَح الحارس بوابة البستان المُسَيَّج بالأسلاك والنباتات الشوكية. واعتَقَد بأنه رأى انحناءة الحارس بعدما سَمِع القفل يَنزل في مكانه المخصَّص.
ثمة غُرَف للدجاج بجوار أحواض صافية محفوفة بزهور مُمكِنة التفتح في الخريف، ورُيَقات طافية على الماء بلون الفضّة والنحاس والذهب والكبريت وأزرار المَعاطِف ومقابض السكاكين. قطرات نشرتها الضفادع، حيث يمكن رؤية القاع المُمَشَّط بطحالب السبايروجيرا.. ثم يَرفَع المرء بَصَره، بعد أن يَتخِذ مَقعَداً حَجَرياً ويُدلي ساقيه في صفاء الحوض وبرودته، إلى حُطام أشجار التين وغبارها المنثور فوق عيدان العنب، حيث تركت الفواكه الفاسِدة بُقعاً مُداسَة على الممر.
كان الدغل الكثيف الجاف المُخَشْخِش لحظة الاجتياز، يَشرح للناظر مقدار التنوع فيما تُقدِّم السماء من بذور مُكَرَّسَة في بقعة واحدة تُبيّن تَخصّص الفصول، فكان العوسَج والفصفصة والقتات والعُنصل والكولان والعلّيق والقرطمان والنفلة والهندباء والشربين وأذن الفأر والكمّون والنعنع

وعيدان الشقائق والدفران والرشاد وذيل السَبع والهرطمان والحَلفاء والدرداء وأذن الجَدي والبقدونس والشِيح والذفرة والروند والشمرة والعبوثران و... إلخ. وكلها تنبت بلا تَدَخُّل من أحد.

وذَهَب شعبان بعدما شَرَح له عن بهجة الحمار بأوراق التين التي تحمي الثمار الكروية الخضراء، وتمدد فوق الساقية لتجمع الفضة. ولكن كل شيء يَذهَب بحلول الخريف، ولذلك فإن قندس حزين ولا يستطيع أحد أن يفهمه غيرك.. فاحتَرِس منه.

عَزَف الحارس في الناي فأزعَج الحمار. والحمار لا يَأكل العشب، بل يَقطف الأوراق الصفراء اللدنة، ثم يَنظُر إلى أخيه بعينين مليئتين بالحنان، عِبر أهداب مصفوفة كأسنان المشط. نَظرَة تَكشف العُمق. نظرَة سابحة في فراغ، وهي، هذه النظرة بالذات؛ أخَف من بذور الرشّاد بين لحظتي النوم واليقظة. ربما أخَف من النافورة، بل أخَف منها بالتأكيد، بحيث تَنقل المفهوم إلى الآخرين فيفشَل الآخرون باستلام المفهوم، لأنها تَدب عِبر كثافة خاصة حتى المعنى المُفَصَّل للوِئام والدِقّة الحَرِجَة كألَم الخَجَل..

يَرى أن تلك الصَفنات تَبحث فوق آثار خطى الآدميّ وصُورته والتَعيينات الدقيقة في تَوابل الهند ومُسدس أوربا، بين أشياء تَعَلَّمَها في السِر كالاهتِزاز المُعذّب أمام شَق الزاوية.

النظرات الساذجة الطيبة، تنوي أن تُريحه، أن تقول بدلاً عنه فيشعُر بالحَميميّة الرائعة؛ العَين في العين، كلحظة عميقة ليَفهم أحدهما الآخر دون حاجة إلى لغة.

ينظر في عينيه الثمينتين ولا يُخفي شفافيتهما وأُلفتهما، فيَقرص خَدّه ليتأكد. ويُحاول الابتعاد عنهما مخافة العَدوى، ومخافة أن يُشرِّخ الشقّاق فلا يعود يرى عِبره ما وراءه، ذلك الذي يتوَقَّر بعد جهود البحث المُضني في الدكاكين ووجوه الناس المُكفَهرَّة الباسِمة، وارتفاع صدور النساء. السر. بالضبط، عن ثُؤلُول أو خال ضائع بين النهدين، أو في نتوءات حُصران البَردي المَجلوبة من الأهوار، أو في قنينة دواء... حتى الحلم الرئيسي للبعض لأجل الإقلاع عن عادة التدخين والسُكر السري...

وهو شاهين، يحس بألم المسمار؛ المطرقة من طَرَف وصُعوبة الاختراق من الطَرَف الآخر. فهو مُجرَّد دُمية مدعومَة بأضلاع عظيمة، بنَظرهم، هُم، الذين تمنوا أن يَغرسوا مُداهم في انتفاخه البلاستيكي، ليكشفوا عن الشيء الذي طالما عدَّبه وطَواه.. وماذا سيجدون غير الهواء المُثقَّب برائحة المطاط؟.

بَدَت له ابتسامة قندس على شكل رَغبات مَفروضَة، ولكنها ذات مَعنى، بحيث لا يَجرُؤ أن يقول له: لكَ أربعة أرجُل، فهو بذلك يَستفزّه، فيَدفَع مؤخرته ثم يرفسه لأنه يريد أن ينظُر في عينيه باستمرار، كارهاً سيماء التفكير والاهتمام. فإن حَرَّك يده حَرَكَة مُعَيَّنة، ضَرَب الحمار الأرض مُنبِّهاً. وإن نَظَر إلى الأفق من بين الأشجار، كَشَّر عن قواطِعه مُنَبِّهاً.

يتلمس جِلده برقة، ويستعرض لونه المدهون بزيت الخروع، مُقرِّباً إبطيه لكي يشم رائحة البِساط العتيق. ويحبه ابتداء من أخمص القَدَم، ويزِن ثقله بِنَظرَة فاحصة إلى انطواء الحَوافِر، ويُقَدِّر أبعاده المُنتَظَمَة. بينما كان حلاّب يهتز بين وسائد الصوف، ثم يَخرُج مُظلِلاً عينيه بكفه ليَنظُر باتجاه البستان، ولا يُصدِّق بأنه تَمَكَّن من إحكام الخُطَّة التي أرَّقَته طوال الليلة القَلِقَة، حيث داوَم في زيارة بركَة الضفادع وكَبَّل الأغصان بخيوط رفيعة ليحاول استعادة اختراع هاتف العُلَب، لغرض الاتصال بالحارس لكي يزوده بأخبار تحركات شاهين. وسمع الناس نقيقاً يخرُج من عُلَب المعجون التي ثقب أسفلها بمسمار، وشاهدوه جالساً على صخرة مُختارة يَدس أنفه ويدرُس صلاحية العُلَب..

وظلَت هاجر تسأل الرائحين والقادمين: هل رأيتم شاهين؟ هل رأيتم وَلَدي؟. فيميلون عنها مُعتقِدين أن عدوى جنون العائلة قد تَسَرَّب إليها، فصارَت تركُض من تَل إلى آخر وتُفَتِّش الوديان والبيوت التي يُحتَمَل حلوله فيها، لا سيما بيت مسعود. وقد هاجَمَت حلاّباً أكثر من ثلاث مرات فَرَدّها الضيوف وأغلَقوا الباب دونها. كان شاهين يواصِل شَم رائحة البساط العتيق تحت إبطي قندس الذي لم تُعجِبه الطريقة فاستشاط غضباً، ومَزَّق ملابس الراعي بالرفس.

فكَّر بضرورة الغَطس، حيث شُباك الضحك والمرأة الطيبة التي أثمَرَت كُرتين بيضاوين وأغصاناً من الشَعر، لكنه تَذكَّر الهاوية، ومجاعات السود، ومُحادَثات نزع السلاح النووي، عِبر نشرات الأخبار، والليل الذي يَمد أطرافَه في فراغ الأيام، لأن الدنيا الجميلة شيء ثقيل لا يُطاق إذا ما حَبَسَت العصافير غناءها وحَدَثَت فيضانات في الهند.. كان الحارس يُسنِد ظَهره ويُشير ويَضحَك، ويقول: أوقِفه أيها المجنون، لأنه سيقتلك.. أوقِفه أوقِفه. وركَض بمحاذاة السياج فأبصَرَ فتحة نجاة، لكنها كانت بعيدة، لذلك رأى أن أفضَل ما يَفعَل هو التَسلُّق.. وهكذا فإن الفكرة حَسنة، حين قَدَّم له قَبضَة أوراق طرية فتَشَمَّمها وهَدأ..

شَعَر بثقل جيبه حيث وجَد المِديَة المُنَمَّشَة بالصدأ، تأمل المِدْيَة. لماذا المِدْيَة؟. ألقاها فانغَرَزَت واقفة في ليونة الأرض.

رأى المديات البعيدة لامتداد الدغل في البستان، كوخ الدجاج من الأعلى، الأحواض كصحون نظيفة، والممرات المؤدية إلى غُرفة الحارس عند الباب، إذ يَخرُج العَزف مُلتوياً حول عوامل الغموض التي تَجعل الارتفاع أمراً رائعاً. أيّة لذَّة؟! أيّ إنصاف؟ تلك التي تقود إلى نُكران الآخرين، بآمال كبيرة تُعطيه الحق في التقليل من أثَر الكوارث عِبر نشرات الأخبار.

ورأى بأنه مُرتفِع، بمستوى القرية، حيث نِظام القُطور المُعاد منذ عشرين سنة، رغم ارتفاع البيت الجصي وإشرافه على السطوح المجاورة.

ويُعلِق الحارس أنفاسه في كل فراغ حتى يَكنس أتعاب النهار ويُعطي نفسه الشجاعة الكافية لمواصلة العَزف بشكل أدَق، نَغمَة أثر نغمة، لكي يلمَس انفصال الروح كانتفاض لذيذ مُدَمِّر يَهز مديات البستان ويَطرق الجذوع الدانية من السياج.

ورأى الحذر الضيّق في مساحات الأرض المفتوحة الرخوَة الخالية الصانِعَة السَراب، من أنه ليس حِصاراً تقريباً. وتَذكَّر عندما أشرَف بيتهم عند نهاية المُنعَطَف بأنه تَرَك الباب مفتوحاً. وأن لونه البُنيّ يلوح في محور مُرتفِع ويدني فيرد البَصَر إلى المُبصِر.

ناداه شخص من وراء السياج: إن هاجر تبحث عنك. وهاجر التي تبحَث، وهي تَصفَع، وتَلعَن، وتُعِد الشاي، وتَبتسِم لحظة الأزمة. فقَفَز مُلتَقِطاً مِديَته.

والمِدْيَة في يَده. هاجر في الرأس. الحمار المدهون بزيت الخروع على بُعد ذِراع و.. طَعْنَة. طَعْنَة. طَعْنَة.

ويَهجُم الألَم لحظة رؤية الدَم يُغطي النَمَش...

يَهرُب عِبر فتحَة السياج لأن الحارس مُنشَغِل بتصعيد هواء الموسيقى..

وهناك، قُرب النهر، سَرَق نَظرَة إلى كفه: دَم. دَم. وألَم.. دَم. فأخَذ يَركُض بمحاذاة الشاطئ. يَركُض ويَنهَق. يَركُض ويَنهَق. وهناك أيضاً، عند الأغصان المغموسَة في الموج وَجَد قارب العَم عارف، وأراد أن يَذهَب مُنفَرداً، لكنه لا يَعرِف تقريباً..

سَمِع صوت انسحاق أحطاب فتابَعَه.. حتى بَرَز له الصوت من وسط الدغل: مَن؟ شاهين؟ هل كنتَ تَنهَق؟.. وما هذا الدَم؟. فأجاب: مَن أنت؟ أنا شاهين، وهذا دَم الحمار الذي قَتَلته.. أنهَق لأنني قَتَلته. ويَضحَك عارف مُستَغرباً، وضحكته قصيرة لأنه يَستَغرِب، ويقول: ألا تَعرِف عارف؟. ويقول: أي حمار تعني؟. يقول شاهين: أعني الحمار، قندس ألا تعرفه يا عارف؟. فيقول: آه.. تقصد حمار حلاّب، كيف؟...

ويَتجِه إليه، فيقول شاهين: بماذا يكون القَتل؟ أليس بالمِديَة؟. ويَعقِد عارف يديه لأنه لا يعرف ماذا يَفعل، ويقول: اهدَأ اهدَأ، يجب أن تهدأ. وجهكَ أصفَر... ولكن لماذا؟. فيجيب: لأن هاجر تَبحث عني.

وطَلَب منه أن يجلس قليلاً لأجل الراحة، بينما انصرَف ليُجري بعض الترتيبات داخل القارب، فَسَوّى المجذافَين وجَمَع شَبَكَة الصيد في المُؤخرة، وقال: اصعَد. بعد أن فَك العُقدَة. قال: سأصعَد، ولكن إلى أين؟. فقال: إلى الجَبَل، ستبقى هناك حتى نُدَبِّر لكَ الأمان. فركَب، وتناول يده المُدماة، لكنه تأرجَح عندما نَقَل قَدمه إلى الجوف، مُغمضاً عينيه ومُوتراً ظَهره في البدء، فأمَرَه بارتخاء.

النهر أملَس مُغَطى بعيدان الطفو، على جانبي القارب. الجانبان المُعَرَّضان لِنَقر الأسماك، وهي أسماك الفضّة على الجانبين. تُهاجِم الخشب بعد أن ابتَعَد وتَد المَرسى بمسافة خطوتي عملاق. والجانبان يَندفعان فوق أذناب الأسماك الكبيرة التي تَصفَع السطح ثم تَغرَق. ينسابان في نشاط حركة الأمواج؛ تيار صَنَعَته حدبَة صخور نحو حدبَة صخور أخرى. وتَنغَلِق الرؤية في ظِل الجَبَل أمام مَهوى الشمس على أوراق الأشجار الدائمة الخضرة، فلم يبقَ سوى التيار المُجَعَّد في الأفق بمستوى طاقِيَّة عارف. بينما يَصعَد الماء عِبر ثقب سريّ فيَدخُل الكيس الذي فيه شيء.

ليس ثمَّ خَطَر يَقترب بدنو البُوز الخشبي من صخرة النمل. كان المُجَدِّف يَتَحَكَّم بالاتجاه بحيث يستَطيع إدخال القارب في ثقب الصخرة ثم إخراجه من الطَرَف الآخر بلا عَواقِب. لذلك ابتَعَدا بسهولة عن خط الخَطَر بعد أن رأى الدَبيب عن قُرب شديد..

قال له: اقفِز. وأدار الخشب عائداً باتجاه الوَتَد في الضفة البعيدة التي كانت قريبة.. ...

ناداه من مُنتَصَف النهر: تَشَجَّع واعتَمِد عليّ. ثم ناداه مرة أخرى: سآتيك بالطعام والأخبار.. أما إذا عطشت فالنهر هدية مِني. وجاءت ضحكته طافِية فوق الأمواج، عنيفَة ومُبَلَّلَة ومَنثُورَة في ذَواء الخريف، ولكنها مُجتمعة لهَزّ الجَبَل.. ..

يَمتَد بَصَره في ممر رملي بين الأشجار حين يَجِد نفسه وحيداً أمام الكثرة الساحرة؛ ارتفاعات رملية مُخَطَّطَة بعدما انحَسَر عنها ماء الفيضان، وهي شبيهة بخطوط حِلاقته المُزَيَّفَة، وقد تَرَك النهر المُنسَحِب بعض البِرَك التي اسوَدَّت لكثر ما يَسبَح فيها الدود والضفادع والأصداف المَقسومَة، وأشياء متنوعة مما اصطادَته شُجيرات الطَرفَة في موسِم الفيضان من مَرمِيّات المُدن الشمالية، ظَلّت عالِقة بعد انحسار النهر. حاجيات أكياس المجانين؛ ملاعِق مَطّاطيّة، عُلَب مَطّاطِيّة، مصّاصات أطفال، دُمى، أحذية إسفَنجية، قناني دواء وكحول وعصير، زهور تَزيين الشَعر، ملاعق، أواني، صناديق أسرار العجائز الراحلات، ماسِكات، مَنافِض دعاية، وألواح دعاية؛ (تحذير حكومي ـ التدخين مُضِر بالصحة ننصحك بالابتعاد عنه. مارلبورو أفخَر أنواع التبوغ. ساحِبات عَنتَر. جبنة البقرة الضاحكة، لذيذة، مُغَذّية. مُعَلَّبات مَرَق الدجاج عَلامَة الأسد. مَصنوعات كوريّة عَلامَة برج ايفل. دجاج البرازيل، مَذبوح على الطريقة الإسلامية. ساعة سِتِزِن. ساعة أولما. تويوتا رمز الدِقَّة والقوة. أسبرين يُزيل الآلام. بيبسي كولا. المطعَم العربي يُدار بالكومبيوتر. تريم جِينز. أولد بار، الوسكي المعروف المُعَتَّق. ألبان كانون... إلخ). وحاجيات منزلية قابلة للطفو، وعلب صفيح حَوَّلَتها الأرانب إلى بيوت لها. أشياء كثيرة لا يَعرفها. مَقذوفات المُدن...

هناك، تلك الانحدارات التي تَتَفَيأ تحت أشجار الغَرَب. ظِلال كثيفة دَبِقَة تعبق برائحة القِير والنعناع وتمتلئ بأنواع بيوض هَجَرَتها الفِراخ، وقد رَسَم الدود في الرمل الرطِب خطوطاً كعروق ساعدي عارف النافِرَة.

يَضطَر، لكي يَصِل الجَبَل، إلى عبور أحد فروع النهر الضحلة، إذ يَنحني ويُشَكِّل جزيرة جَرداء مَكسُوَّة بالحَصى، حَصاة تَرُصّ حَصاة حَصاة تَرُصّ حَصاة حَصاة تَرُصّ حَصاة... بحيث تَترُك مَجالاً لِلغُوَيبَة بأن تُحَرِّض نباتاتها على تناول الجُرف الجبلي فتُكَوِّن أردية تَدخُلها الزنانير.

راح يَصرخ تحت الجُروف، ولكن صوته يَضيع في ضوضاء الهَديل والزَقزَقَة والصَفير والتغريد والعواء، وأصوات أخرى صعبة التمييز لمخلوقات أبصَر منها الكثير وبَقي الكثير. حَشَرات بعيون مُستَطيلَة. دواب ضائعة في شقوق السيول، كاليَربوع وأم أربَع وأربعين والرُتيلاء والأسروع والصلّ والعَقرَب والجعل والشَعراء وسراج الليل والعظاءات المختلفة في الشكل والحجم والجدجد والزيزان واليعسوب والغرير والقنفذ والنمس وأنواع الفئران والثعالب والسنجاب... إلخ.

يَذهَب الخوف ويَذهَب الجوع قُرب بركَة من برك الأسماك المَحصورة بعد انسحاب النهر، حيث بَنى للديدان البيضاء كوخاً من الرمل، وحَفَرَت رُكبتاه حُفرتين، وعَمَّق خَطاً بمثابة ساقية لإزالة

حصار الأسماك لأن شوك الجروف يَتَنفس بحُريَّة تحت الخريف، فلماذا لا تَتَنفَس الأسماك التي أطلعها من الماء؟.

وتَمَدَّد فوق الكُرة الأرضية شاعِراً بزيت الأجنحَة، بالغطس حتى أحجار القاع. لجّة النهر. الفيضان. اللبوة الجريحة. الباذنجان على الجريدة حيث الموضوع المكتوب عن مجاعة السود. الطيور الأصوات الطيور الأصوات الطيور الأصوات، الهَديل الدائم الداء الدا... دا ـ با ـ دا..

ويَضيع صوته. يَضيع لأنه لم يُجَرِّب لذة أفضَل من الماء، ذلك أن هاجر ولدته في قَيظ جَهَنمي؛ الناقِص ابن سَبعَة شُهور. كحلم قُرب الثدي الطبيعي، يَتَذوّق بُرودَة الحليب ويُركِّز فيها، في شفتيها اللتين عَلَّمَتاه اللفظَة الجامِعَة: دابادا...

ويَلجأ إلى الغيبوبة عندما يَفشَل بإصابَة ذيول البَط تقريباً. ويَتَصرّف وِفق طريقة تَجَنُّب الخطأ لأجل تَجَنُّب العقاب، عندما كانت الأشجار أكبر من الأشجار المُعاصِرة، والنهر أعرَض، والأرض في تَجربة الدوران حتماً.

لقد امتَصَّت الصخور حُمرَة الخَجَل، واستَمَر النهر في رياضَة التَهديد والتَقَلُّص، حتى بعد أن أسكَن الأسماك ثقوباً فماتَت. ورأى تكاثُف الدِيدان ضدّه عندما قَتَل واحدة. وهذا أيضاً من نتائج الإحساس بطَراوَة الطين وألَم الحلزون ورائحة الوجوه الكابِيَة والناس في خَط شبيه بأثر المشط. كذلك العيون الماسيّة لحيوانات الشقوق، تلك التي تنتَظِر طلوع الليل، وهي كبيرة بحجم الجذوع التالِفَة، حَقُودَة ومُسالِمَة ـ وآمِلَة الأنياب بتَفتيت جَسد بَشَري..

ومنذ أول مَطر على أرض الله ـ والناس. منذ ذلك تقريباً، والطبيعة تَعمَل بجهد لترتيب بيت شاهين، في شَق سَيل هائل. بيت ذو رُفُوف مَرمَرية، لكي يَضَع نفسه فيه، تحت السقف الشبيه بأوراق كِتاب ضَخم. وقد فَرِح لأن هذا المكان بعيد عن مُتَناوَل الضَواري، إضافة إلى أنه يَمد سلّماً مع انحدار السفح حتى المكان. ومن المكان ـ البيت حتى شاطئ النهر. كما يُتيح له الإشراف على الماء المُلتَوي كأفعى تُرَقِّطها الجُزر، وتخبئ الغُوَيبَة ذَيلها. كذلك القرية المَخنوقة. بمساحة شاسعة من البَراري الجَرداء.

ويَجلِس في بيته الجَبلي ولكنه لم يستطع الاستقرار، لأنه لم يعرف المكان، فَيَتكئ واقِفَاً، ناظِراً إلى أمام وليس إلى شيء مُعَيَّن.

وبَدَأ الألَم يَنقُر يَده، فيَضَعها بين فخذيه ويُطبق. فتُداعِب وجهه أعشاب الصخرة المُجاوِرَة التي اتخذَت لوناً أبيض مُنذ طوفان نُوح. بينما أخَذَت صخرة الجهة المُعاكِسَة شكل الثور لِتَدفَع بَصَره عنها باحترام. ويُفَكِّر، لهذا الخَندَق شكل فَم ضاحِك، فَم عظيم. للجبال أفواه وأطراف وقُلُوب كبيرة نابِضَة، وهي تَشرَح حنان الاحتواء.

ويَفتَح الوادي المَنقوش بأشجار الصفصاف نَفسه مُنذِراً بمَجيء المساء. وقد تَحَوَّلَت أنواع الصخور البركانية القاسية المَعشَر، والأخرى الرسُوبية المُسالِمَة، والقوقعية التي تأخذ أشكالاً لوجوه حيوانات ورجال يَعرفهم. ففي عهد مُبَكِّر حاوَل الوصول إلى الجبل، إذ كان النهر يَكشِف بطنه طائعاً رَغَباته، بصُحبَة عوّاد في حلم جَمْع القَواقِع، لأجل وضعها على الرَف، ومَعدَن الكبريت المُنسَرِب من ثقوب القطط.

تطوف عيناه عِبر الصمت الجالس على حافة النهر، وقد نَسي لَغط المَخلوقات. أخاديد مَجاري السيول. ولِقَطرَة الماء ثقب بمثابة عش. وفي الجُرف ملاجئ لطيور يعرف أشكالها دون أن يُتعِب نفسه بالبحث عن أسمائها. رُفوف صخرية مُخَطَّطَة بفَضَلات.

وهناك فوق قمة عالية، يجلس البُوم في وضع التأمل. وكلما أحَس شاهين بأنه المَخلوق الآدميّ الوحيد بين مخلوقات مُختَلِفَة، أطلَق صرخة عاوِيَة، لكي تَرتَد إليه كصرخات كثيرة... وهكذا يَشعُر أنه صار شَواهيناً كثيرة، فَيَطمَئن. ويصل إلى نقطة هي نهاية بدء. مَحَطَّة استراحة. ثم يَضَع الجبل خَلفه مُستنداً. لحظة العودة إلى شُبّاك الضحك.

والآن: تبدو القرية أمامه كعُلبَة ثقاب، فيَعجَب كيف كان يعيش هناك، ويَتَعَذّب ويَضحك أحياناً!!...

هناك، حيث يُشير برأس سَبابته؛ حلاّب، شعبان، هاجر، عالية، عزيزة، زهرة، مسعود، صاحب النظارة السوداء، عجائز الوديان، احتفال القبور، مَشغَل عوّاد، زهور، المرأة ذات القميص المُهتَز، المرأة الأخرى الأقل فِتنَة من الأولى، والآخرون، صاحب المقص ـ كل أبطال هذه الرواية ـ كلهم يتبادلون عِبارات الأسف حول جثة قندس، حيث الدم والذباب وبكتريا التَفَسُّخ...

غاض الضوء بين الوديان وتَسَرَّب في جروح الجبل، وساهَمَت الآفاق، تمتص بِلَذة شَرِهَة.. فيَتَرَسَّب الظِل ويَملأ المُنحَدرات مُتَسَلِّقاً السفوح نحو القِمَم حتى طيران البُوم.

يتمدد فوق نتوءات تَثقب ظهره، ويحس بسلام عميق، يحس بالصَلاة...

يَرفُس حَجَراً فيَتَدَحرَج إلى الوادي، ويُنصِت إلى ألَمه عندما يَصطَدِم فيُبَعثِر استعدادات نوم الحَجَل.

انقَلَبَت أزقة القرية، فجأة، إلى نقيق ورصاص يغوص في جدران الطين والأحطاب، وقد انتَشَر الخَبَر كالسُم. وركَضَت سيقان نحو مَصادِر الصوت، حيث كان حلاّب يمد صرخاته بين الممرات، وفوق أكوام الروث، ويُرسِل رجاله إلى زوايا القرية بَحثاً عن الهارب. وقد أثارَتهم الأنسام الداخِلَة عِبر ثقوب المَنازِل، إذ يبدو كل عمود، وخرقة، وعلبة لامِعَة، شيئاً يَستَخرج من النفس غريزة الاكتِشاف. إضافة إلى الأغصان الساقِطة في ظِلال اليوكالبتوس، والتي تَدفَع المَارّة إلى فتح الأفواه والمشي على أطراف الأصابع، فيَحدُث أن تَذهَب السيقان إلى الجانبين مُخالِفَة نظام المشي الطبيعي، حتى تتلامَس الأجساد ناظِرَة إلى نقطة مُعَيَّنَة، مُعتِمَة.

حَذَر. حَذَر الزوايا، ومَداخِل الأحطاب التي أعَدّها الدجاج للبيض، حيث سَمعوا تَكَسُّر الحُزَم بصوت خبيث، فكانت الكلاب تُهاجِم بدافِع الخوف، والقطط تتمَسَّح بحُجة الأُلفة. وتصير حاسة اللمس أشطَر الحواس، والسمع أعلى من الكلام. حِوارات قصيرة خافِتة، لأنهم يخشون المفاجأة. غير أن كل واحد منهم يَنتَفض مَصعُوقاً إذا ما فُوجِئ بغُصن يُدَغدِغ وجهه من فوق حائط، أو دخول حَشَرَة بين الرداء والجِلد. وتمتد الأكُف خِلسَة لتتصافَح: أدافِع عنك حتى الموت... اتفقنا.

تَسَلّل المساء الحزين إلى بُقعة هاجر، التي لا تعرف ماذا تَفعَل، فكانت تَقوم لتَكنس جثث العصافير الساقِطَة على العتبة.

وعَزَف الرعاة، بقيادة الحارس، ألحاناً تأبينية فوق المُرتَفعَات.

ومضى الصِبية مُرتَطِمين بجدران الأزقة، حاملين رِماح القَصَب لاستِفزاز فَتَيات الأبواب اللواتي أُتيح لهن الخروج بحجة الضجة. ونَظَروا عِبر فتحات الحيطان إلى أعمِدة الغبار المُضيئة، يتَسابقون في الصَفير وفق طريقة طَبْق اللسان تحت الأصابع.

وقامَت الفَتَيات بمحاولة تَعَلُّم الزَغرَدَة تحت سِتار الضوضاء. أخرَجَت هاجر بقايا القَطيفَة، فأوقَدَت منها ناراً كبيرة، وهي تَستَمِع إلى عَواء الذئاب.

وظَل حلاّب يَصرخ، ويَتَلمس الأشياء: هذه شجرة التُوت. هذا سياج الآس. هذه ربابة شعبان..

ويَفتَح باب القَبو، فتصير الشجرة خَلف ظهره، حيث يَسمَع أغصانها تُقَطِّع الهواء. كان صدره جامِداً كغطاء صندوق. يتَقَدَم في وَحْلٍ، يفتح الباب: عُررررر.

.. آه.. صوت الباب، نَعم هذا صوت الباب. يَتَقَدم في وَحْلٍ نحو الأكياس، حيث فَضَح مصباحه تفاصيل المكان. رطوبة، كما يَتَوَقع القارئ، رائحة بيض فاسد كشيء خاص يكشِف عن قِدَم المكان وعمقه. وثمة شقوق نَحَتَها المطر الأخير. وفي السقف جذوع مُتقاطِعة تَحمِل أرضية البيت. بَق وذباب حيث غبار عتيق. سِلال. أكياس قَرَضها الفأر. بَدَن دَراجَة مُحَطَّمَة.

ينظُر في القبو نَظرَة مُثيرَة للشَتم، عندما يَنزِل خطوة أخرى، وفجأة؛ تلك السلّة التي تظهر، صراخ طفل مولود قبل الأوان...

وبحركة سريعة، يَعرِف خارطة النفاذ؛ باب لصق السماء السوداء. حذر حدّ سَماع القلب. يَتَراجَع إلى العتبة... ويَمكث حتى يُتعِبه التَوَقُّع. قال للباب: يجب أن أخرُج. ولَمَس قلبه عندما واجه شجرة التُوت.. ثم تَنَفس بعلو ناظِراً إلى البيت المهمل لصق الأفق. وأبصَر جَسداً على العتبة. ليس جَسَداً، وإنما كيس قطن.

كانت الأغصان مُنحنية بثقل العصافير النائمة، التي تجفل كلما مَرّ بها عَمود الغبار المُضيء، فيجفل معها.
مرة أخرى، وَجَد نفسه مُلامِساً لباب القبو، يَدفَع: عُـرررر... آه إنه الباب.. صوت الباب. وهناك، يُوسِّع لجَسَده مكاناً بين الأكياس... ويُطفِئ ضوء المصباح.
يستيقظ شاهين بعد غفوة قصيرة، ويَفتَح عينيه بأقصى اتساع مُتَعرفاً على المكان.. فيَجِد الظلام، ويَتَذكّر بيته الجبلي، فيركن إلى طمأنينة مَثقوبَة تحت وطأة المُفاجئ الذي اختَرَق الغفوة مُشيراً إلى عشرات البطون المُتَموجَة في فناء جامِع.. والجامِع في صحراء.. والصحراء في صحراء أكبر. دفوف.. ويَدخُل الموت برعشَة الزاوية. أنصال. قضبان واخِزَة. بصاق مُقَدّس. ملح مُبارَك. شرائط قماش أخضر. له عين ثالثة يَرى خفايا الصدور، وحَدس يَكشِف النوايا فلا حاجَة إلى الخوف وحمل الأسرار، بل يجب الاعتراف بجميع الذنوب قبل أن يُكشَف عنها. كُن طيباً وبسيطاً وخائفاً. كُن خائفاً وتَصَدَّع. أغمِض عينيك واعقِد يديك على صَدرك... الله حَيّ.. الله حَيّ. ستأتيك الصُوَر. الله حَيّ..
قالوا اصعَد إلى ثلاثة، فالأول جميل وهادئ ومُبتَسِم، ولكنه مُخيف يَمد إصبعاً من أصابعه النحيفة نحو حيوان يَزحَف فيَتَحَوَّل إلى إنسان. يَبدو شَقافاً عِبر ردائه الواسع. أما الثاني فيَحمِل عصا مُشيراً إلى جهة ما من الوادي الأخضر الفسيح، لأنه صامِت وقصير وقوي. اصعَد. أشار بعصاه إليك، وقَطَّب جبينه مُشَجِّعَاً، فرَميت قَدَمك على حَجَر السلّم حيث جهة الإشارة. اصعَد نحو الثالث، الذي يَحتَضِن غيمة زرقاء في الأعلى. رجُل مُهاب، مُغَلَّف بضوء مُغَمَّم نظيف. فارتَجَفت وسَقَط وجهك على الدَرجة المُقبِلَة، لكن العصا لَمَستك بِقَصد الحَث.. غير أن الرَهبَة أثقَلَتك. الرَهبَة الجامِعَة، الرقة الغالِبَة.. كل شيء حتماً، يا للحلم!!.
يَفتَح عينيه أكثر، فيَرى الظلام المُحيط. ويَدخُله الهواء البارد فيَخرُج ساخناً بمستوى عَواء الضواري. لأن جَسَده طَريّ لا يَحتَمِل الأنياب، بسبب قَشعَريرَة دَبيب مجهول على الجِلد... فيُخَيَّل له أن أحداً ما يَنطق اسمه، منادياً هامِساً مُحَذِّراً: شاهين...
يَفتَح فمه جامِعاً بالسمع أبعاد الظَلام، لكن الصوت وَشيش النهر وهو يَلحَس أقدام الجبل، يَرتَفِع فيأخُذ معه النِداء، كما يَرتَفِع صوت مسعود آنذاك:" لَم تَكذب. لَم تَسرق. لَم تَزن.. أنتَ رجُل نظيف..".
يَنزِل مُجتازاً فَرع النهر فتهزّه بُرودَة الماء، ويَسمَع من جديد: شاهين... نِداء يَشبه الأنين، لكن عَواء الضواري يَطمس النِداء، مُشيراً إلى أنها لم تجِد بعد وجبَة عشاء مُناسِبة. صوت قريب: شاهين. خَرير ينبوع ـ كلا ـ صوت أنثى ـ كلا ـ حَوافِر قندس ـ كلا ـ انسِحاق عظام. مَطمَطَة. حيوان يأكل حيواناً.. هَرير. أنياب تُمَزِّق لحماً ـ كلا ـ.. غير ممكن، ضوء؛ عينان فسفوريَّتان، فَم مُدَبَّب، آثار دماء تَتَسَلَّق الصخور... يعوي عالياً ثم يَهرُب من شِدة الضوء. ويَسقُط، غير أنه نادِراً ما يَصِل إلى الإغماء. النِداء قريب: شاهين. نِداء وضوء. شاهين أين أنت؟. يَعرف هذا الصوت: مَن هناك؟. فيُجيبه الصوت: أنا عارف.. لا تَخَف، كنتُ أناديك منذ ساعة، ألم تَسمعني؟.
ويَرفعه عن الرمل الرطب، ويَحتضنه. فيَشم رائحة القاربيّ... الإنسان. زَغَب الوجه يُلامِس الوجه. يبكي، فيقول له: اهدأ يا أخي.. فالحمار بخير. ويسأله عِبر النشيج: أي حمار تقصد؟. فيُجيب عارف: قندس. يقول: مَن قندس؟. يقول عارف: أهيسه! قندس الذي... ويقاطعه: أعرف بأنني لم أقتله لأنني اكتَشَفت فيما بعد... اكتشَفت ماذا؟ يقول عارف. فيرد عليه: استَعملتُ المِدية بشكلٍ مَعكوس، لأن كَفي ظَل يُؤلمني.. والدم هو دَمي أنا، لا دَم الحمار.
ويَضحَك صاحِب القارب فتَطفو ضحكته فوق الأمواج، عنيفَة ومَنثُورَة في ذَواء ظُلمَة الخريف...
لامَس خشب القارب أعشاب النهر. جَوف في مساحَة ضائعة، مَدفوعَاً بقوة رِقة الأمواج. أمواج المساء العالي الحُر البَليد. مساء الأسماك الكبيرة التي تأكُل الأسماك الصغيرة... إلى متى؟.

أسئلة في هاوِيَة الأخوَة البَشَر، الجاهلين الطيبين، حتى سواحِل القِرش الأمريكي، حيث يَسلقون البيض في صحراء نيفادا، عِبر نشرات الأخبار، ولا يعرفون شيئاً عن صخرة النمل وأكواب الفخّار في مُنحَدَر التل الأسود. بينما يَدفَع عارف الماء ليَندَفِع في الماء، بأذرعه الخشبية المُبتَلَّة الجاقَّة المُبتَلَّة الجاقَّة المُبتَلَّة الجاقَّة المُبـ... وقع المساء العالي، يَجرَحه ثم يُداوِه، مُضيئاً رؤوس الأمواج المُنتَظَمَة المُتَتابِعَة المُتَساوية المُنحَنِيَة على بعضها، المُتآخِيَة النظيفَة لأنها تَطرُد العذوق والعِيدان والغرائب إلى اليابسَة المُتَّسِخَة دائماً. فالأمواج تَغسِل الأمواج.. غير أن اليابِسَة مُثَقَّبَة بالمَراحِيض... إلى متى؟.

عارف شَبَح أكيد، لأن رائحته أكيدة، وتَنَفسه مُرتَفِع، فهو يَجرَح المساء ثم يُداويه بالمساء. يَجرَح الماء ثم يُداويه بالماء. إذ سُرعان ما تَندَمِل العناصِر المُتَّحِدَة، باستثناء جَرح المِدية المَقلُوبَة، فسوف يُنكَأ بالمُصافَحَة.. ويَذهَب كل جُهد بلا فائدة كالليمون الذاوي في السِلال بسبب مَجاعَة السود لأن الأسماك الكبيرة تأكُل الأسماك الصغيرة تحت الجَوف المَدفُوع بقوة رقة الأمواج. وعارف يُغَنّي بقوة كما يُغَنّي الجميع بقوة عندما يَدفَعون الماء بأذرُع الخشب المُبتَلَّة الجاقَّة المُبتَلَّة الجاقَّة المُبتَلَّة... آهات تَعني الأنثى المُنتَظِرة، بين وسائد ريش الحَمَام، طَرقَة الباب المُتَّفَق عليها في المساء، حين تُقَدَّم لها الهدايا الكثيرة كالأسماك والجزر، والمَناديل المُعَطَّرَة، فتَدفَعها وتأخُذ رائحة الشِعر وأغنية الذَكَر الغليظة، بقصد الآهات.. فالجميع يجرحون كجرح المِدية المَقلوبَة، الذي يُنكَأ بالمُصافَحَة. هل أنتَ جائع؟ يقول الظِل المُغَني وهو ينحني ويَستَقيم، ثم يَعود إلى الانحناء، ويَقطَع الغنية ليُكَرر: هل أنتَ جائع... يا أخي؟. ويُضيء أغصان المَرسى الغاطِسَة في الأمواج، حيث يُلامِس خَشَب القارب رؤوس الأعشاب ويَهتَز بسبب الاصطِدام. يَرمي الأذرُع الخشبية ويقول: انزِل على مَهل... لكي لا تَسقُط. ويُعطيه دَرَنات السِعدان و: تَحياتي لهاجر... اتجَه إلى أضواء القرية واعذرني..

يَجتاز حُطام مَزارع القطن، شَطر أضواء القرية، كما أوصاه عارف. يَتَخَدَّش نصفه الأسفل. لم يكن مُتعَباً وإنما يُريد أن يَسقُط، حين تناول الليل نصفه الأخير وهَدأ البحث عنه. لا بسبب القناعة بل بسبب اليأس.. فقد فَتَّشوا كل مكان فلم يَعثُروا على أي أثر له. بينما ظَلت هاجر تدور في أرجاء البيت حاضِنة رأسها تَستَعِد للخسارة النهائية، وليس الهزيمة النهائية. فلن تَصعَد بعد اليوم لكي تدعوه إلى الفطور، لأنها لا تستطيع مُجابَهَة مكانه الفارغ، حيث المنشَفَة، والسَرير، وملابس الطفولة، والساعة التي ستُواصل الرنين مُعلِنة، من خلال حركة دائرية، عن تتابع الوقت ومَهزَلَة أيام الأسبوع المُتَكَررة منذ أقدَم العصور...

يَمُر تحت الجُرف الصخري مأكولاً من قِبل الوادي، فيَرى شَبَح مَشغَل الرجل الذي سافَر إلى العاصمة لأجل الشُهرة.. ثم الأعمِدة التي تسند غيم الحرائق. ما هذه الأعمِدة التي تسند غيم الحرائق؟.

ليس هناك تَل بالمَعنى الجغرافي، فالشواهِد مُوَجَّهَة صوب الغبار كفقاعات كَف مُتَوَرّم، إلى جنوب البيوت. كَفٌ بين فخذين تُرافقهما الأضواء، ليُحَدِّد البَصَر مكان الجَدة السَمينة آكِلَة البيض الفاسِد، والصور الغامضة التي تملأ الجَوف أحياناً، حتى الشُعُور بضرورة التَقيؤ.

كانت تأتي كظِلال رَفيعَة، نَعش أثر نَعش، مَربوطة بمسامير ناتِئة. رجال يَحمِلون رَجُلاً مُمَدَّداً.. كان رَجُلاً، أما الآن؛ فمُجَرَّد رَجُل يَنزِل لأنهم يُنزِلونه إلى العظام التي تَحَوَّلت إلى مَزامِير للريح بسبب ثقوب الحَشَرات. دَرَجات فظيعَة من أنغام أنهار الجَنَّة النابِعة من أي مكان غير مُحَدَّد، تختفي هنيهة حيث مُنحَدَر عَوار الضواري ثم تَذُوب في المَقبَرة ـ عُمْر الفقاعة، تَنفَجِر حين يجب أن تَكبر. ويُؤدي الزيزان واجبه تحت أحطاب التِين. لكن صورة الرَجُل الأول تَتَكَرر كَدَفقَة حارَّة مالِحَة من دَفَقات نقاط الزيت، مُستَقِلَّة في الكَيف، فيضطَر أن يموت، وهو رَجُل مُهم... هكذا، أثر قَرصَة حَشَرة، ويضطَر الناس إلى جَرّ نَعشه بنير الثيران، بعدما دَثَّرُوه بأزهار الباميا وأوراق البقدونس، لذا فإن أخشاب النَعش قد حَفَرَت خَطّاً أعمَق من حدور السيل بعد أمطار آذار، وضُرِبَت حَول قَبره أسياخ حَديديَّة لغَرَض حِمايته من تَدخُل حيوان الغرير، لأن الرَجُل مَضمُون...

رَجُلٌ جميل، إلى جانب رجال في هيئة السُخرية. يَنظُرون وجوه بعضهم بعضاً، ولا يَرون وجه أحد منهم بالتحديد، بسبب نومهم هناك على المُرتَفَع، فسحة الأعياد والحلوى.
ليس ثمَّ أحد بالتحديد يَجلس مكان أحد. ما مِن شيء يَلمَع لأن كل شيء مُنطَفِئ بَنفس سُهُولَة الصراخ المُمتَد بامتِداد ظِلال الحَزانى الذين لا يَرون شيئاً مُعيَّناً، يصغون إلى دَبيب الظِل أياماً وشهوراً مَقهُورِين بِبُرُود أمام حُطام مَزارِع القطن، بلا خَوف أو حَذَر أو أمَل.. ولا أي أمَل بمجيء الموت مَرّة أخرى.. ولا حتى أمَل ببقائهم أياماً وشهوراً مَقهُورِين.
ثمة نساء، ذِكريات نساء تقريباً. نساء مَيّتات يَحتَضنّ أطفالاً مَوتى، تحت المطر وعواصِف الغبار ومياه البَطّيخ المَسرُوق كل يوم، بفَضل الشموس الحارّة المَسرُوقة أيضاً من خَط الاستِواء.
فقط، تجدهم بلا أية مَتانَة مَعروفة، يَهزُون شَعراتهم الباقية الخالِدة؛ رأس عند قَدَم وقَدَم عند رأس... حتى الجِهة الأخرى مَصدَر طُلُوع القَمر والبَعوض، بِسَلاميِاتهم الناقصة يَحكُّون النَسيج اليابـاني الخَشِن، حين تُبَدل السماء ألوانها بالتَعاقُب؛ الفَيروزي، الذَهبي، الفضي، الكبريتي، النُحاسي، الإسفلتي... ما مِن فُصُول ولا ذِكريات ولا أرقام ولا أصوات إذاعات، لأن الله مُرتَفِع فوق مياه النهر وبَرق السَحاب، يَسمَع سُقُوط أوراق الخريف وَرَقَة.. وَرَقَة، بعدما يَأمُر الخريف بالسُقُوط وَرَقَة أثر وَرَقَة، في كل مكان تقريباً، حتى القُطب وجَحيم خَط الاستِواء، وأسرار البَراكين الخامِدَة أو الثائرَة أحياناً.
وفي المساء، لحظة الانصراف إلى الشؤون، يَنسى المُمَدَّدون واجِبهم فيَذهَبون إلى ذاكِرات العجائز، على الأغلَب، يَذهَبون إلى الذاكِرات المَحشُوة بالنِسيان. وقد أعَدّوا، عِبر تَعَب طويل ومَرير، تفاصيل مُرَوِّعَة لأجل اللحظة الاحتفالية، حيث تَسير ظِلالهم مُمتَصَّة زَوائد القَعر ـ الهاوِية المُرتَفِعَة كفقاعات كَف مُتَوَرِّم. زُرقَة. زُرقَة شَقّافَة. زُرقَة شاحِبَة، وهي حُمّى وطفولة مَعكُوسَة تَبدأ بعد سُقوط سِن العَقل في طَرَف الأدغال المُحاصَرَة بعواصِف آخر الليل. ربما بُعَيد مُنتصف لَيل الأرق. بل قَبل الانتِصاف تقريباً.
اثنان أو ثلاثة من عائلة واحدة، يُحافِظون على رَوابط القُربى عِبر اهتِزاز التُراب، بلا إشارة، يَعودون ويَذهَبون قَلِقين لأنهم في نفس المكان، لا يَجِدون الشجاعة الكافية لبدء التعارُف بإشارة إنسانية ـ إشارة مُعَيَّنَة لاستِمرار خُمُودهم. هل هي إشارة إنسانية؟ إنهم غير مُتأكدين... هذا هو المُهم. لا شيء، لا شيء، وَقعٌ مُستَمِر طوال المساءات التي تموت وتَحِل مَحَلها مساءات أخرى. لا شيء. شُهَداء العِشق ماتوا لأجل قُبلَة، شفَة على شفَة، بل شفَة في شفَة. تَلَمَّسوا الفراغ فأخطأوا في العَد، لأنهم اثنان، بَشَران، آدَميان: أربَعة أيدِي، أربَعة أرجُل، أربَعة عيون ـ والآن ثقوب، أربع قَصَبات تنتهي بالأمشاط، وفقَ مَفهوم عِلم (الأحياء). أطفال حَصبَة العُصُور القديمة طيور للجَنَّة لأنهم أطاعوا آباءهم، فَغَسَلُوا أيديهم قَبل الأكل وبَعده... ثم الشَيخُوخَة المُتَشابِهَة، ما أن يَبلُغ أحدهم الراحة حتى يَرتاح نهائياً.
اثنان أو ثلاثة، يُحافِظون على رَوابط القُربى، ويَعمَلون باستمرار لتَمتين تلك الرَوابط، فتَظَل قوية لأنهم لا يَفعَلون أي شيء لأجلها مَخافَة أن لا تَبقى مَتينَة... باجتِياز دهُور النَوم، وقد مُحِيَت أغلَب التعابير التي تَجعَل الواحد مَذمُوماً حتى لا يَفهم الآخر بأنه لا يُريد الانتِظام في الصَف، حَسب فصيلة الدَم الجاف، لأنهم بلا دَم أصلاً، باستثناء ما تَبَقى من السَلاميات التي تَحُك النسيج اليابـاني الخَشِن. بلا شَفَقَة أو تَعزيم أو غَرام أو انفِعال أو عَذاب، وبلا أية إشارة إنسانية، لكي لا يَفهَم أحدهم بأن الآخر مَيّت، فلا يَتَحَدثون في ذلك أبداً، غير أن أسماءهم تَزور، من وقت لآخر، ذاكِرات العجائز المَحشُوة بالنسيان... فيَرفَع بَصَره إليهم، فتَجيء النعوش كَظِلال زرقاء رَفيعة نَعش أثر نَعش، مربُوطَة برؤوس المسامير الناتِئة.
اللحظَة.. يَقتَرِب من الإغماء فيَتَدحرَج في حُفرَة سَيل سُوِّيَت قَبل قَرن على الأرجَح. فيَصير الصَحن المُضيء، الدائرة المُضيئة؛ القَمَر يُلامِس حافة التَل مَقسُوماً بأشباح نِساء عاريات. شُبه عارِيات تقريباً. عاريات تماماً. يَتَعَرين أحياناً. يَخلَعن للقَمَر ويَعوِين. قال: جنِّيات.. اذهَب يا خَوف. اذهَب يا خَوف اذهَب. ويَزحَف صاعِداً بين القبور فتَحل الأحجار مَحلّه. يُنادي بِخُفُوت: أيتها

الجنّيات.. اذهَب يا خَوف. فيَسمَع كلاماً يَعرفه، ويَقتَرب من عُريهن أكثر. يَنهَضن بالفُؤوس ثم يَهوين بالفُؤوس لتَهشيم مُنتَصَف القَمَر. لعَلّه يَعتَقِد بأنه يَعرِفهن؛ صوت عالية، صوت زهور، صوت عزيزة، صوت هاجر.. أصوات جميع النساء المَعروفات. لابُد أنه جاء إلى هنا. لابُد أنهن جِئن إلى هنا ليَحفرن إحدى الفقاعات. ينادي: أيتها الجنّيات... يا عاريات. فلا يَصِل النِداء بسبب الانهماك في الحَفر.

يَصعَد دُخان أزوَق بعد الإنجاز فيُشَوّه القَمَر. دُخان السِحر والطُقوس. هذا الدُخان بالذات يُعمي الرجال عن مَحَبَّة النساء، يُفَرِّق الرجال عن النساء، يُزيد مَحَبَّة الزوج لزوجته فيَخضَع. مَحَبَّة الشَرق. هنا، غالية، لا تأتي بالإخلاص أحياناً، بل تأتي بالخَوف.

يَصعَد القَمَر أيضاً ولكن صعوده أقل. يَسمَع أصواتهن فلا يَدري إن كانت مَعروفة لديه؟.

يُنادي: مَن أنتُن؟. فيَصرخن ويَرجمنَه بأحجار الحفر..

يَتَدحرَج حتى حُفرَة السَيل نحو شَبَح آخر، ذلك الذي يَحقِن الرِضا تحت جِلده فتَتَساوى التجاعِيد بالخَد. أحِم أحِم.. أحِم. يَتَّجِه الأحِم إلى المَقبَرَة.

يَلمَس في الهاوية الزُقاق جَمرَة حَسَده، حيث مَهوى القِطة التي حُصِرَت بين نَعلين، يحسِد نَفسه؛ كنتُ شجاعاً. لا. بل يَشعُر بِخَوف أقل لأن نَقراً.. .. ما يَفعَل القَلب أحياناً.

النَفَس، بعد زَوال المَقبَرَة، في الزُقاق ـ ظُلمَة الأم، كيف تأتي الصُور ويَذهَب الجوع؟. المساحة أقل بناعِم الهواء. ظِل فوق ظِل. جُزُر وحيطان وزُحُوف أفاعٍ وألواح وأنوف في الظِل. يلتَوي البارد مُستَرخِياً ومُطيعاً كخرطُوم. الهواء هو البارد. تَستَيقِظ الأهداب باستِيقاظ اللوَامِس فيكُون الوَراء أماماً بالتَحَوّل. يَلتَوي مُبَكراً.. فأينَ بُقعَة السُقوط؟. بُقعَة سُقُوط القطة التي حُصِرَت بين نَعلين. ظِل فوق ظِل. يُتابع الخائف حتى النهاية مُنفَرداً، يَتَسلَّق داخِل الرداء الواسِع باتجاه الضَحك، لكنه لم يَعُد يَدفَع قَسراً قَدَميه الرخوَتين، ولا لزوجَة النَسمَة في الفراغ. كلا. ربما نَسي القَلب شُغله مَبهوراً أمام الحِياكَة المُتقَنَة؛ القَمَر ومَساقِط الظِلال في الزُقاق كَف داعِية إلى الأعلى، قَعر إناء بَعيد. ضوء وظِل. ضوء وظِل. ضوء وظِل. قَصَب السقوف: ظِل. قنازِع القَش: ظِل. الشبابيك: ضوء. الأعمِدة: ظِل.. تَمُر من جميع الجهات، اليَسار واليَمين، الأمام والوَراء، الأعلى والأسفَل... بينما تَذبل البيوت في مَركَز الكُرة الأرضية حين يَصعَد عَواء الضواري الجائعَة فتَذهَب الصُوَر ويأتي الجوع أحياناً. ربما تَتَوافَق الصُوَر مع المَوضُوع، "ألا تراها. جَميلَة تحت الباذنجان"؟ مَجاعَة السود عِبر نَشرات الأخبار. قَعر إناء بَعيد. ضوء. ضوء. يَنسَكب الضحك من الأعلى، رادِعاً مُجَلجِلاً عِبر عش اللقلَق طَعَنات طَعَنات حتى يَستَيقِظ القَلب. الضحك يملأ الهاوية بين غُرفته وغُرفتهم، شُباكه وشُباكهم، الشَرق والغَرب. الضحك جِسر المُصافَحَة حيث زَغَب الوجوه يُلامِس الوجوه المُشتاقة.

وشاهين في الأسفَل، يَنتصِب بموازاة أنبُوب تَصريف مياه المطر، فتَملأ بعض القَهقَهات هذا الأنبوب، لأن الخريف بلا مطر.. تَرن مَخنُوقَة ومُبَكّرَة. والأنبوب بارِد لأن الهواء بارِد.. بينما الضَحكَة حارّة..

لم يَكُن مُتأكداً بأنه مُعلَّق، لولا ألَم الطَعنات الثلاث في كَفه. يَتَسلَّق حتى حافَّة الشُباك، تلك الحافَّة التي تَذبَح صورته من المُنتَصَف. ثم يَرتَفِع فيُطلِع رأسه لأنهم يطلعون رؤوسهم: فاتن، والآخرون. يَضحَكون بعيون دامِعَة بين رِفعَة الأثاث. إنهم قريبون. يَصعَد. هاهُم. ويُدلي رأسه.

كانت هناك ست فَتحات، أما الآن فسبع، لكن ضَحكه يَضيع في لجة النشيد المُتَجانِس. تَمتَد يَد ناعِمَة إلى مَجمرَة. اليد البيضاء عَصَبيّة مُحاطَة بدوائر الذَهَب، ومَقطُوعَة بطَرَف كُم مُبَقَّع. انتَهَت. اليَد مُمسِكَة بمِلقَط أسود لأنها بيضاء عَصَبيّة. تَضغَط لكي تُقَرِّب طرَفي المِلقَط على بعضهما، ومن الجَمر أيضاً. يَرتَفِع المِلقَط.. لحظة صَمت بلا أي هَمس ولا تَنَفُّس ـ فالكُل يَنظُر إلى المسمار المَشوي المَلقُوط من الجَمر.. يبُطء لكي لا يَسقُط، ثم يُعَلَّق فوق إناء. اليَد العَصَبيّة تُرخِي فيَسقُط المسمار في الماء: كِش. يَنفَجِر النَشيد. ضَحْك ضحْك. كِش؛ صوت بُرود المسمار. كِش. ضَحْك. يَضحكُون لأجل هذا الـ (كِش)...

يَنزَلِق مع الأنبوب. كِش. يَسقُط في بُقعَة القطة صوت اصطِدامه بالهاوية حين آلمَته الطَعنات الثلاث..
كان شاهين يَركُض وراء آلام الليل، حين الانطِلاقَة الأولى للعصافير. وتَستَيقِظ القرية ضاحِكَة ذات صَباح غريب.
تَضحَك البيوت والدرُوب والخَبّازات، والذين سَحَبوا بَقراتهم من النوم بعدما قَضت الليل تُحَرِّك ذيولها لطَرد البَعوض.
كل شيء يَضحَك.. حتى الكلاب ونباتات الشوك، والأعشاب الميتة في الروث كَلِحية مُرهِق، والرَجُل الغريب الذي نام خجلاً بِفَضل تِكرار الكَرَم، وسأل: ما بِكُم؟ ما الذي حَصَل؟ ما الذي يُضحِككُم؟.. ثم فَرَكَ كَفه استعداداً للفطور. لكنهم غارِقون في الضَحك. فَهَزَّ الطفلة التي تُريد أن تَسكُت غير أنها كانت تَنظُر أسنان أمها المُصفَرَّة بالخُبّاز والنيكوتين. ما الذي حَصَل أيتها الصغيرة؟ لماذا يَضحَكُون؟... وهكذا.. أهمَلَ رأسه ليُكمِل النشيد الناقِص.
ضَحك. ضَحك. ضَحك.. .. .. ..

الطبعة الأولى، الدار العربية للموسوعات، بيروت ١٩٨٨
الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠١